الفصل السابع

احتلال العراق.. الإرهاب الأمريكي الدولي

- الحرب ضد العراق نموذجاً للإرهاب الأمريكي.
- الدعاية والحرب النفسية.
- من أسرار الحرب.
- كم ستدوم الحرب؟
- دور الصحاف.
- يوم الكارثة.
- رامسفيلد على المحك!
- سقوط بغداد.
- أسرار سقوط بغداد.
- جنرالات من الجيش العراقي يكشفون أسرار الانهيار السريع لقواتهم.
- الجنرال فرانكس يعترف بتقديم رشاوى لقادة عراقيين.
- شهادات من الحرب.
- لماذا حدث الانسحاب؟
- جثة المصور البلغاري.
- الصدمة ثم الفرحة.
- مقاومة ضد الاحتلال.
- حالات انتحار واضطرابات نفسية بين الجنود الأمريكيين.

احتلال العراق
الإرهاب الأمريكي الدولي

الحرب ضد العراق نموذجاً للإرهاب الأمريكي:

سيقال في المستقبل: إنّ يوم الجمعة ٢٠ أيلول / سبتمبر ٢٠٠٢م لم يكن يوماً عادياً، ففيه انحازت الولايات المتحدة إلى عقيدة عسكرية جديدة، وفيه، أيضاً اختارت العراق حقل الاختبار الأول لتطبيق إستراتيجيتها التي بدأتها يوم ٢٠ آذار / مارس ٢٠٠٣م.

فمنذ اثني عشر عاماً تعرض الشعب العراقي إلى حصار شامل أدى إلى وفاة حوالي ١,٥ مليون مواطن عراقي (في كل ٦ دقائق يموت عراقي) بسبب حرمانهم من الطعام والدواء. واليوم يبدو أنّ العراق كان مجرد عنوان لموضوع أكبر منه، حيث كانت الحرب عليه التجربة التطبيقية الأولى لسياسة الضربة الوقائية ضد الأنظمة التي ترى الإدارة الأمريكية أنها تشكل تهديداً للولايات المتحدة في المستقبل، سواء بإنتاج أسلحة الدمار الشامل أو بإنتاج «التطرف» الذي تعتبره العدو الذي ستواجهه في السنوات المقبلة. وإذا كانت المعركة ضد الإرهاب هي من طراز جديد فإنّ الحرب على العراق هي تكرار شبه حرفي للحروب الاستعمارية في القرون الغابرة والتي شنت كلها ـ تقريباً ـ تحت اسم «تمدين الشعوب المتأخرة».

في تمام الساعة الخامسة والنصف (٢,٣٠ بتوقيت غرينتش) فجر الخميس٢٠ آذار / مارس ٢٠٠٣م قامت الطائرات الأمريكية والبريطانية بقصف العاصمة العراقية بغداد، وسبق إطلاق صفارات الإنذار سماع انفجارين أو ثلاثة

ضخمة تلتها انفجارات أصغر إثر سقوط عدة صواريخ في أنحاء العاصمة بغداد. جرى خلالها قصف العراق بنحو ٢٥ ألف صاروخ ومئات الآلاف من الأطنان المتفجرة التي حملتها القنابل التدميرية التي زودت بها الطائرات خلال٣٠ ألف طلعة جوية، قتل خلال الحرب من ٢٠ آذار / مارس إلى ٣٠ نيسان / إبريل ٢٠٠٣م ١٣ ألف عراقي بينهم ٤٣٠٠ مدني (حوالي٣٠ ٪ أي بين ٣٢٠٠ و ٤٣٠٠ شخص) من المدنيين غير المقاتلين الذين لم يحملوا سلاح.

وجاء القصف بعد مرور ساعة ونصف الساعة على انتهاء المهلة التي حددها الرئيس الأميركي جورج بوش للرئيس العراقي صدام حسين بالتنحي ومغادرة البلاد هو ونجلاه أو مواجهة الحرب. وكانت قد انقضت مهلة الـ ٤٨ ساعة التي حددها الرئيس الأميركي في الساعة الواحدة بتوقيت غرينتش الرابعة بالتوقيت المحلي لبغداد، والتي بدت كمدينة أشباح مع حلول الظلام حيث خلت من حركة المواطنين على غير عادتها.

لكن بوش كان يعرف أن الرئيس العراقي سيرفض تلك المهلة، وسيختار البقاء، ليس لأنه سيتحدى القوة الأمريكية، وليس لأن المهلة كانت محدودة، أو حتى مهينة كما اعتبرها بعض الأمريكيين من الحزب الديموقراطي حتى، جونز سميث قال في تصريح لتلفزيون «فوكس نيوز»: «ليس هنالك من يقبل على نفسه الرحيل عن بلده في ظرف ثمان وأربعين ساعة ». كان الأمر أكبر من مجرد رأي؛ لأن الصقور هذه المرة تجاوزوا الحدود، لعلمهم أنهم سيجعلون من صدام حسين مهزلة عالمية.. وأنهم لن يستغرقوا وقتاً طويلاً للقضاء على النظام.

يقول الكاتب «شارل رومان » في كتابه «الخوف والكراهية»: «لا شك أنه لم يتوقع أحد أن تنشب الحرب في العراق (على الرغم من ضخامة التهديد الأمريكي)؛ لأن الحرب في العرف الدولي ليست أمراً سهلاً، خصوصاً بالنسبة لدولة مثل الولايات المتحدة، سيما أن الأسباب التي عرضتها الإدارة الأمريكية لشن الحرب هي نفسها الأسباب التي تريد القضاء عليها في العراق: أي الانتهاء من

العنف، فهل يحق لدولة أن تنتهي من العنف بعنف أكبر؟ من الناحية القانونية تعد هذه الحرب وصمة عار على المجتمع الدولي، ليس لأن صدام حسين لا يستحق السقوط، بل لأن الولايات المتحدة الأمريكية مارست لعبة القط والفأر مع المنطقة، ولأن القوة الأمريكية تسببت في الكثير من المشاكل والجرائم في العالم، فكيف يحق لها أن تعطي لنفسها حق القضاء على دولة أو نظام بالقوة؟ ويعبر الكاتب عن رأيه بصراحة قائلاً: تاريخياً فقد فعلتها الولايات المتحدة أكثر من مرة.. فعلتها في عهد نيكسون حين حاولت الإطاحة بالقوة بنظام فيديل كاسترو، و حين أطاحت بنظام «سلفادور أليندي» واغتالته على أيدي رجال من المخابرات المتعاونين مع المخابرات الشيلية، وفعلها «رونالد ريغن»، مثلما فعلها جورج بوش الأب تجاه الرئيس البانامي واعتقاله.. و فعلها جورج بوش الابن منذ ٢٠٠١ الذي شهد أكبر هزة في التاريخ الحديث.. ولكن بقيت العراق مجرد «تهديد»، لأسباب سياسية أهمها أن الدول التي عارضت الحرب أكثر من الدول التي أيدتها، و ثانياً لأن العراق ليست «باناما»! والسبب الأهم و الأخطر هو أن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني قد دخل مرحلته الحرجة، وأن الاهتمام بالصراع يعني عدم الدخول في صراعات فرعية أخرى.. بمعنى أن شن الحرب على العراق يعني الدخول في صراع آخر لا يمكن توقع مدى فظاعته، خاصة وأن إسرائيل تمارس حكم «الأبارتايد» ضد الفلسطينيين أمام أعين المجتمع الدولي الذي عجز عن مجرد الإدانة الصريحة لتلك الممارسات غير الأخلاقية ضد النساء والأطفال والشيوخ داخل الأراضي المحتلة.

لكن الحدث الأعنف كان الحرب على العراق، وتحدي كل المواثيق الدولية عبر تورط مجلس الأمن الدولي وهيئة الأمم المتحدة مع الولايات المتحدة الأمريكية في تلك الحرب.!»[1].

(١) الخوف والكراهية LA HAINE , LA PEUR، شارل رومان، الناشر: Provocation ٢٠٠٣.

الدعاية والحرب النفسية:

رغم عنف الهجوم الأمريكي البريطاني على العراق واستخدام صواريخ وطائرات عملاقة لأول مرة، والصور التليفزيونية للأجواء المحترقة فوق المدن العراقية، إلا أن الحرب النفسية التي بدأت قبل الغزو العسكري بشهور، بدت أعنف حدة وشراسة، وتعددت أساليبها، واستخدمت فيها كل ألوان الدعاية والتخويف وبث الرعب، أملاً في أن تنتهي هذه الحرب العسكرية قبل أن تبدأ، أو أن ينتهي عهد صدام حسين على أيدي رفاقه أو جنوده.

ويقول الخبير العسكري اللواء الدكتور جمال مظلوم: إن هذه الدعاية والحرب النفسية لم يسبق لها مثيل، فقد بدأت قبل عام من الحملة العسكرية الأمريكية البريطانية، وتأكد من طريقتها وأساليبها أن البنتاغون يعول عليها كثيراً في إنجاز نتائج الحرب قبل بدايتها، فقد رأينا منذ بدايتها أنها اعتمدت أولاً على بث الرعب والتخويف وروح الإحباط.

والحقيقة أن البنتاغون اعتمد في حربه النفسية على التظليل، سواء في التصريحات أو شكل الهجوم، ولم يكن هذا التضليل هدفه تضليل الجانب الآخر عسكرياً، وإنما تدمير معنوياته، ولتحقيق ذلك أنشؤوا إدارة للتضليل تقوم بتسريب هذه الدعايات، وإطلاق التحذيرات التي كانت تتناقلها كل وسائل الإعلام العالمية، وتصل بالتأكيد إلى دوائر صناعة القرار في بغداد وإلى الجنود والضباط العراقيين.

ولا نستطيع أن ننكر أنه كان لهذه الحرب النفسية تأثيرها الكبير، فالمسؤولون العراقيون لم يتوانو في التنازل سريعاً عن كل ما كانوا يصرون على رفضه، لدرجة نستطيع أن نقول معها: إن الحملة العسكرية التي كانت واقعة لا محالة نجحت قبل أن تبدأ بشهور طويلة في إلغاء دفاعات حيوية للعراق لم تكن مدرجة ضمن أسلحة الدمار الشامل.

فمثلاً لم تكن الصواريخ «صمود٢» مدرجة ضمن تلك الأسلحة، لكن قبل الإنذار الأمريكي الذي أعلنه بوش بأيام قليلة.. طلب المفتشون الدوليون تدمير هذه الصواريخ، وأنجزوا ذلك فعلاً قبل الإنذار الأمريكي.. إن تأثير الحرب النفسية الشديدة التي تعرض لها العراقيون شهوراً طويلة وزادت وطأتها في الأسبوعين الأولين من آذار / مارس ٢٠٠٣م، جعل النظام العراقي يخضع لكل ما يطلبه المفتشون الدوليون لعل وعسى تبطل مبررات الغزو الأمريكي البريطاني.

وفي نظر اللواء الدكتور مظلوم: إن قمة الحرب النفسية وصلت إلى أعلى مدى لها في خطاب جورج دبليو بوش الذي سمي بالإنذار الذي وجهه للقيادة العراقية وطلب فيه رحيل صدام وابنيه، والإعلان عن قبول ذلك خلال ٤٨ ساعة، وإلا سيتعرض العراق لهجوم عنيف من القوات الأمريكية والبريطانية من البر والبحر والجو. إن كلمات هذا الإنذار منتقاة بشدة لدرجة أنها تصيب بالرعب حتى من هم خارج العراق، فقد طلب مثلاً من المراسلين أن يسرعوا بالهروب.

وبعد الخطاب بدقائق معدودة بدأ البنتاغون يسرب خططاً مضللة عن الضربة الأولى وكمية الصواريخ التي ستدمر الأبنية الإستراتيجية والأهداف العسكرية في بغداد.

فبسبب العبارات الشديدة لهذا الإنذار لم يبق في بغداد سوى ٣٠ مراسلاً فقط من مئات المراسلين الذين كانوا يودون تغطية أعنف حملة عسكرية في التاريخ، وإنه لأول مرة تصرح الولايات المتحدة بأن حياة مراسلي وسائل الأعلام مهددة بسبب ما ستلقيه بوارجها وطائراتها الثقيلة «الشبح» وغيرها. وفي مفردات الحرب النفسية يشكل وجود المراسل الصحفي أو التليفزيوني عامل تطمين للمدنيين؛ لأنه يعني أنهم سيكونون غير مستهدفين، وإلا فإن وسائل الإعلام ستنقل كل شيء، لكن بوش في حربه النفسية أراد بطلبه للمراسلين بالهروب تحطيم المعنويات وإجبار الناس على ترك بغداد والمدن الأخرى واللجوء لأماكن آمنة، إنه

يريد هنا أن يلغي إستراتيجية حرب الشوارع التي تعول عليها القيادة العراقية كثيراً وتعتبره السلاح الأخير الفعال.

بعد هذا الإنذار عرف الناس ساعة الصفر، وهو أمر جديد في المعارك الحربية، فقد جلس الناس ليلة الخميس ساهرين متسمرين أمام أجهزة التليفزيون ليشاهدوا الضربة الأولى، وفصلاً جديداً من الإرهاب الأمريكي.

وننتقل في تحليل الحرب النفسية ضد العراق إلى اللواء محمد نجاتي الذي يبدأ بالقول: إن هذه الحرب هي جزء مهم جداً من أي معركة عسكرية، فبواسطتها يمكن أن يسجل أحد أطراف المعركة نصراً قبل أن يباشر عملياته العسكرية، والأمريكيون بارعون في تطوير أساليب هذه الحرب وتنويعها وتوجيهها إلى أهدافها.. ,وإذا رأينا أسلوبهم في الحملة العسكرية نرى أن خبراءهم النفسيين عكفوا طوال أكثر من سنة على دراسات نفسية واجتماعية لطبيعة الجندي العراقي والإنسان العراقي بصفة عامة.. والواضح أنهم حاولوا أن يقيسوا ذلك بخبرتهم التي اكتسبوها خلال حرب تحرير الكويت، وربما وضعوا لعمليتهم اسم «تحرير العراق» ليجعلوا الأمر بالنسبة للعراقيين على أنه عمل عسكري لصالحهم، وأن القوات الغازية جاءت مضحية بأنفسهم لها؛ لذلك لا يخفى على أحد عندما نقلت الصحف وأجهزة التليفزيون صورة لجندي أمريكي يرفع علم بلاده فوق «أم قصر» بعد الحديث عن السيطرة عليها.

إن هذه الصورة دمرت جزءاً معنوياً مهماً لوحت به الإدارة الأمريكية قبل حملتها، بأن جيوشها ليست محتلة، بل محررة، وإنها ما وطئت مكاناً وإلا تركت ديموقراطية ودساتير وحقوق الإنسان، وإن بترول وثروة العراق أمانة لن يستفيد منها سوى الشعب العراقي!!.

هذه الصورة قد تمر مروراً عادياً عند أي محلل، لكنها بالتأكيد لن تمر بتلك السهولة على مخططي الحرب النفسية الأمريكية؛ لذلك سارع «تومي فرانكس»

القائد الأمريكي للحرب في العراق بالقول إنه لا يعلم ما إذا كان ذلك خطأ، وإن مهمة الجنود الأمريكيين هي التحرير وليس الاحتلال، وإن ما حصل كان حماساً من الجندي ولكنه سارع وأنزل العلم.

ومن ضمن الحرب النفسية ما حدث قبل بدء الغزو العسكري بساعات حيث انتشرت شائعة هروب طارق عزيز إلى الشمال الكردي من العراق، ورغم سذاجة هذه الشائعة فقد عملوا على تسريبها إلى وسائل الإعلام، ورددتها الإذاعات الأمريكية والبريطانية الموجهة للأراضي العراقية. فهم يعرفون أنه لا بد أن يظهر طارق عزيز بعد قليل في التليفزيون العراقي لينفي الشائعة، وهم يدركون أيضاً أنه ليس من المستساغ قبول افتراضية هروب عزيز وهو مسيحي كلداني إلى الشمال الكردي السني، كانت هذه الشائعة مجرد اختبار لتأثير الإشاعات في العقلية العراقية قبل وقت قصير من بدء الهجوم الصاروخي على بغداد. وعندما بدأ هذا الهجوم بتسمية معنوية وهي «قطع الرأس» واكبته تسريبات بمقتل صدام حسين ونجليه وأركان قيادته في المبنى الذي استهدف.

ذلك عندما بدأ تأثير الحرب النفسية المبكرة يضعف بسبب عدم فعالية الهجوم وعدم انسجامه مع التسريبات التي كانت تتحدث عن العدد الهائل من الصواريخ المتقدمة جداً والقنابل الذكية التي ستخترق حصون بغداد في الضربة الأولى.

لكن ظهور صدام حسين في التليفزيون قبل مرور أقل من ساعتين من الهجوم الأول جعلهم يستخدمون قصة إخبارية قديمة درجت على الصحافة الغربية وحتى العربية على استخدامها منذ عدة سنوات والخاصة بأشباه صدام حسين، فقد شككوا في أن صدام لا يزال حياً، والذي ألقى الخطاب هو شبيه له.

وعندما بدأ هذا التشكيك لا يؤدي الغرض منه، بدؤوا فوراً الحديث عن التاريخ الفعلي لهذا الخطاب.. هل هو تسجيل تم منذ يوم أو أيام أو أنه فعلاً بث مباشر أو

بعد الهجوم بالرغم من أن الرئيس العراقي حرص في خطابه على افتتاحية بذكر تاريخ الهجوم الأمريكي الذي تم في فجر الخميس ٢٠ آذار / مارس، وأيضاً عندما أخطأ التليفزيون العراقي في يوم الهجوم وذكر في إحدى نشراته الإخبارية الليلية إنه تم فجر الأربعاء، لم يفوتوا ذلك بل ركزوا على أن خطاب الرئيس صدام حسين مسجل فعلاً قبل الهجوم، وأن التاريخ الذي بدأه في خطابه يمكن إقحامه فنياً.

ونلاحظ بعد ذلك أن تسريباتهم حول مصير صدام حسين استمرت على هذا المنوال رغم تكرار ظهوره اليومي التليفزيوني، حتى إن المراسلين في بغداد نفسها بدؤوا يتشككون، فسألوا محمد سعيد الصحاف وزير الإعلام العراقي عن حالة صدام حسين فأجابهم بأنه يظهر كل يوم في التليفزيون.. ولعب البريطانيون في حربهم النفسية على هذا الجانب، فراح مراسل الـ «بي بي سي» في بغداد يشكك في صور اجتماع لصدام مع أركان قيادته فيقول: إن الصورة تبدو أنها نفس صورة اليوم السابق.

وركزت الحملة النفسية مفرداتها على مقتل صدام أو عزة إبراهيم أو عدي، وعندما ظهرت قوة المقاومة غير المتوقعة في جنوب العراق، جرى الحديث عن مقتل قائد هذه الجبهة علي حسن المجيد.

ومن أهم المفردات التي استخدمتها الحرب النفسية الأمريكية الإعلان عن سقوط المدن واستسلام الجنود العراقيين في ظل تعتيم إعلامي اشتكى منه المراسلون المرافقون للقوات الغازية، وحتى يفلتوا من وصف بياناتهم بالكذب مما يشكك في مصداقيتهم، وبالتالي يهدم أهم أسس حربهم النفسية. رغم أن الكذب هو أحد وسائل تلك الحرب. إلا أن المخططين والراسمين لها يحرصون على عدم انكشاف هذا الكذب، راحوا يناقضون أنفسهم، فمرة يعلنون سقوط مدينة «أم قصر» ويقومون باستغلالها إعلامياً، ثم يعلنون في مرة أخرى سقوط المرفأ دون أن يتناولوا بلاغهم السابق حول سقوط المدينة نفسها.

والشيء نفسه فعلوه في مدينة البصرة مستغلين عدم وجود مراسلين فيها عدا مراسل قناة الجزيرة، وعندما أدركوا أن هذا المراسل كشف أن القوات الغازية لم تدخل المدينة انتقلت إدارة الحرب النفسية هذه المرة من البنتاغون إلى بريطانيا، حيث أعلن القائد البريطاني أن سقوط البصرة ليس هدفاً إستراتيجياً، وأن القوات المهاجمة لن تدخلها حتى لا تقحم نفسها في حرب مدن أو شوارع، ولكنه أراد تمرير هذا التراجع ليكون مؤثراً نفسياً على الجنود العراقيين، فقال: إنهم يعملون على استسلام سلمي للقوات المدافعة عن البصرة.

قطعت شبكة «NBC» الأميركية علاقتها مع المراسل المخضرم بيتر أرنيت بعد تصريحات أدلى بها للتلفزيون العراقي ذكر فيها فشل خطة الحرب الأمريكية ضد العراق، كما طرد الجيش الأمريكي الصحفي جيرالدو ريفيرا مراسل شبكة «فوكس نيوز» في العراق، بسبب تغطيته الإخبارية لسير المعارك.

وهناك فرق بين الأسلوب الإنجليزي والأسلوب الأمريكي في الحرب النفسية.. فالإنجليز لهم مدرستهم التقليدية التي تركز على الوقائع من دون تحريف كبير، مع التبريرات التي يصيغونها بطريقة يتقبلها الطرف الآخر المستهدف بالحرب النفسية، والحرص على عدم المبالغة أو التهويل أو الحديث عن عنف الضربات أو أنواع الأسلحة مقدماً.

وهذه الطريقة الإنجليزية طريقة عتيقة لا يغيرونها رغم تنوع أساليب الحروب النفسية، وتطورها وتعدد وسائل التقنيات والاتصالات التي تستطيع إيصالها إلى المستهدف وعدم التغيير ينسجم مع الشخصية الإنجليزية الباردة والكلاسيكية على عكس الأسلوب الأمريكي الذي ينتهج الإبهار حتى في حرب نفسية عسكرية، ويغير أنماطه وخططه بسرعة كبيرة معتمداً أيضاً أسلوب التضليل أو الكذب، فمثلاً: طائراتهم التي تُسقط، يقولون: إنها بسبب أخطاء فنية، كتصادم طائرتين بريطانيتين أو سقوط طائرة ثالثة خطأ، أو بواسطة صاروخ باتريوت أمريكي أطلق عليها بطريق الخطأ أيضاً.

وإذا قالوا: إن «أم قصر» سقطت وثبت أنها لم تسقط تماماً يلجؤون إلى التغيير الفوري فيقولون: إن المرفأ هو الذي سقط وإن هناك جيوب مقاومة في المدينة يتم التعامل معها، وإن المشكلة أن المقاومين خلعوا بزاتهم العسكرية وارتدوا ملابس مدنية بدلاً منها.

إن هذا التناقض سيكون له أبلغ الأثر على تحقيق الحملة النفسية الأمريكية لأهدافها، خاصة أنها كانت ستقابل بالتهليل والترحيب من الشعب العراقي، وهذا لم يثبت، وإنما حدث العكس برغم صور المرحبين التي نشروها في وسائل الإعلام وثبت أنها صور مضللة.. ووصلوا إلى الخطأ الأكبر وهو الحديث عن استسلام الفرقة ٥١ العراقية.

والمعروف أن الفرقة تعدادها يكون بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف جندي، فإذا كانت هذه الحرب حرب تليفزيونية تنقل وقائعها على الهواء، فإن المفترض أنه عندما أعلن عن استسلام فرقة كهذه أن أعرضها لوسائل الإعلام، وهذا لم يحدث أبداً، مما كانت له آثار سيئة على صدق البلاغات الأمريكية.

ومن المعروف أن البلاغ العسكري يتم إطلاقه لينال نفسياً من العدو قبل أن يكون هدفه تقديم المعلومات، وزاد من التخبط أن القادة الأمريكيين راحوا يتحدثون بعد ذلك عن أسر ألف جندي، ثم يعرضون صورة بعد ذلك عن أسر ألف جندي، ثم يعرضون صورة تليفزيونية لمجرد عشرات لا تدل سحنتهم على أنهم مقاتلون، كل ذلك أثر على صدق حربهم النفسية بعد أيام قليلة من بدء الغزو، في الوقت نفسه الذي فاجأ فيه العراقيون بعرض صور أسرى وقتلى أمريكيين بطريقة أدت بالفعل إلى تأثير نفسي ومعنوي كبير على الجانبين إيجابياً في الجانب العراقي وسلبياً في جانب التحالف.

هذا العرض المفاجئ انسحب أيضاً للتشكيك في دقة البلاغات التي تعلنها أمريكا وبريطانيا، والتي لم تشر إلا لعدد قليل جداً من القتلى لم يتجاوز ثلاثة جنود من المارينز بعد ثلاثة أيام من المعارك وعدم سقوط أية طائرة..

إن العراقيين رغم ضعف وسائلهم الاتصالية والإعلامية تعاملوا جيداً في الحرب النفسية المضادة، فقد ساعدوا في نشر إشاعة هروب طارق عزيز، ثم كشفوها ليضربوا السهم الأول في صدق الحرب النفسية الأمريكية، ثم صمتوا طويلاً قبل أن يبثوا صورة الأسرى الأمريكيين والقتلى، وقبل ذلك سارع التليفزيون لينقل الصحاف عن صدام حسين أن الأسرى سيعاملون معاملة أسرى حرب، نافياً ما كان قد ردده الصحاف من قبل بعكس ذلك، وهذا يصب في صالح الحرب النفسية على الجنود الأمريكيين، فلا شك أن هناك فرقاً بين من يعرف أنه سيقتل في جميع الأحوال وبين من يدرك أن تسليمه لنفسه يحميه من القتل[1].

من أسرار الحرب:

التقارير التي كشفتها بعض الصحف الأمريكية ـ قبل الحرب ـ تؤكد أن المعلومات التي على أساسها صممت خطة رامسفيلد المعنونة «الصدمة والترويع Shock & Awe» وكان كتاب صدر عن الجامعة الوطنية للدفاع NDU في العاصمة واشنطن من تأليف هارلان أولمان (عام ١٩٩٦)، وتحت عنوان «الصدمة والرعب لتحقيق السيطرة السريعة». ويبدو أن الهدف الرئيس من إستراتيجية الصدمة والرعب هو تحقيق السيطرة السريعة وضرب إرادة العدو على القتال، وجعله يسعى إلى الاستسلام دون خوض الحرب.

وتتطلب هذه الإستراتيجية الأمور التالية:

- المعرفة والاستعلام.
- السرعة القصوى في التنفيذ.
- البراعة في التنفيذ والسيطرة.

إنها الحرب المتوازية على كل مراكز ثقل العدو دفعة واحدة وبقوة، بحيث لا يستطيع إعادة تنظيم صفوفه استعداداً للحرب أو المعركة الفاصلة.

---

(١) مفاجأة صدام حسين الثالثة: الهروب الكبير، مجلة المجلة، العدد ١٢٠٩، ١٩ / ٤ / ٢٠٠٣.

كانت معلومات مخابراتية غير صحيحة في مجملها، ويقول مونستيراس: برايان هرمان مدير الفرع السياسي الثاني في مكتب الاستخبارات الأمريكية وصل من «تل أبيب» قبل عشرة أيام من الحرب.. تقرير سري نشره موقع «إسرائيل دوت كوم» عن «قمة» مخابراتية ثلاثية أمريكية إسرائيلية وبريطانية انعقدت في مدينة «أوسلو» التي شهدت أكثر من حركة غير عادية من جانب سفارات الدول الثلاث، وأن آخر اجتماع دام ٩ ساعات في فندق «المرج الأخضر» الذي يبعد ٢ كيلو متر عن العاصمة النرويجية.

التقرير نفسه كشف عن تواجد شخصيات أمريكية مهمة في أوسلو، منها الرقم الثاني في البنتاغون «بول وولفويتز».. هذا الشخص بالذات الذي يقال عنه في البيت الأبيض «الذئب الأبيض» لا يمكنه مغادرة مكتبه إلا إذا تعلق الأمر بالحرب.. لا يمكن القول: إن الرئيس الأمريكي كان مهماً في قرار الحرب على العراق.. الدور الذي كان عليه أن يلعبه هو أن يكون إلى جانب المحاربين ساعة يدق فيها الجرس وتدوي الطلقة الأولى.

الصحف الأمريكية اتهمت رئيسها بأنه كان يجهل التاريخ المحدد للحرب، حتى حين كلم رئيس وزراء إسرائيل، كان يقول له: الحرب ستكون حتمية.. لكنه على غير ما جاء في بعض التصريحات، لم يكن يعلم هو نفسه بالوقت المحدد، قبل أن يلقي لشعبه خطاباً يقول لهم فيه: « في هذه اللحظة التي بدأت فيها الحرب على العراق».. لكن على عكسه تماماً، كان أريل شارون رئيس وزراء إسرائيل يعلم بالتوقيت، قبل يومين كاملين من الحرب! فثمة من هو في الكونغرس، من أعلى مسؤول في وزارة الدفاع من حمل على عاتقه مهمة إعلام رئيس وزراء الدولة العبرية بتاريخ وساعة الحرب.

كم ستدوم الحرب؟

ساعات، وربما أيام لن تتجاوز الأسبوع، هي المدة التي كان الجميع يراهن عليها.. إسرائيل نفسها رتبت خطة قمعية لمقاومة الفلسطينيين تتحدد في الأيام

الأولى من الحرب مركزة على العنصر الأهم: انشغال العالم بالعراق.. لكن الحسابات لم تأت كما خطط لها! يجب القول: إن النظام العراقي نفسه ساهم في إيصال التقارير الكاذبة إلى البيت الأبيض. وزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحاف قال بتاريخ ١٤/ ٢/ ٢٠٠٣م: «العراق يوصل ما يريد إيصاله إلى الخارج، لن يحظى الآخرون بأكثر مما يريده العراقيون».. طبعاً كان الكلام موجهاً إلى الإدارة الأمريكية بعد أن تم اكتشاف شبكة عراقية تعمل لصالح الأمريكيين، وكان بعض أعضائها من ضباط الجيش، الغريب في الأمر أن العراق تكتمت على القضية أول الأمر واعتبرت القبض على «الخونة» درساً جيداً للأمريكيين.

صحيفة «القادسية» العراقية كتبت في ٢٠٠٣/٢/٢٥م، أي بعد أسبوعين تقريباً من كشف الشبكة العميلة تلك، تقول: «لن يهزنا نظام أمريكا الرجعي، ولن يثنينا عن القيام بدورنا في عراق لا يستسلم لأحد»، وكان المقال بقلم محمد سعيد الصحاف نفسه.. في الحقيقة كانت القوة العراقية تكمن في قدرتها على التعامل مع الظروف المتغيرة.

صدام حسين قبل أسابيع من الحرب قام ببعض التغييرات «المهمة» في الجيش، ربما أبشع ما ارتكبه الرئيس العراقي أنه ترك ابن عمه الجنرال المكلف بتحركات الحرس الجمهوري داخل بغداد مسؤولاً ثانياً للحرس الجمهوري.

تقرير بثته «سي.إن.إن»، تحدث لمدة ربع ساعة عن ابن عم الرئيس العراقي ماهر التكريتي قبيل سقوط بغداد بساعات. ربما لم يستوعب أحد لماذا تركز شبكة بمستوى «سي.إن.إن» على ابن عم الرئيس مثلاً، وليس على الرئيس نفسه، أو ابنيه.. أو الذين يقال: إنهم أذرعته اليمنى على الأرض.. الجواب جاء في ٢٠٠٣/٣/٢١م، حين خرج دونالد رامسفيلد يقول في ندوته الصحفية اليومية: إن ثمة اتصالات سرية مع الحرس الجمهوري، وإنه يحاول إقناعهم أن الموت لأجل شخص مثل صدام حسين إهانة لهم! كان الربط سهلاً في هذه الحالة.

شيء آخر أكثر غرابة وهو أن صحيفة إسرائيلية كشفت عن اتصالات أمريكية مع ضباط من الجيش العراقي، بالذات من الحرس الجمهوري الذي كان يشكل خطراً حقيقياً على الجنود الأمريكيين بخلاف فدائيي صدام الذين في النهاية كانوا ينتظرون أوامر العمليات الفدائية، على الرغم من أنهم كانوا يشكلون غطاءً جيداً للحرس الجمهوري.. كان ماهر التكريتي واحداً من الذين جاء اسمهم في التقرير الذي نشرته الصحيفة الإسرائيلية، نقلاً عن تصريح «ليفي بلمار» مستشار سابق في مكتب المخابرات الإسرائيلية (الموساد).. لعل الشيء المدهش في الأمر أن تلك التقارير والتصريحات بدت للعراقيين وكأنها «مؤامرة» أو كأنها دعوة أمريكية إلى الفتنة. العراقيون رفضوا الأخذ بها، معتبرين أن المعركة تحددها العمليات على أرض الواقع، وأن النتيجة هي التي تأتي في الأخير. ولعل الذي شجعهم على رفض تلك التصريحات هو التوافد العربي على بغداد، آلاف من المتطوعين العرب تركوا كل شيء وجاؤوا إلى بغداد للدفاع عنها، بعضهم لم يكن يعرف كيف يحمل البندقية بشكل صحيح، ومع ذلك كانت بغداد بالنسبة لهم وطناً آخر، وكان الدفاع عنها واجباً حقيقياً. هذا التوافد المدهش كان من الأسباب الذي حمل القيادة العسكرية على اعتبار أن ما صرح به رامسفيلد ليس صحيحاً.. إذ كيف يمكن تصديق أن البلد الذي جاء إليه الآلاف من المتطوعين للموت فيه، سيخونه أبناؤه؟!.

دور الصحاف:

النقطة الثانية التي زعزعت الثقة الأمريكية في حربها على العراق هو التنظيم المدهش بين الآلة العسكرية والإعلامية.. ربما لأن محمد سعيد الصحاف الذي قال مرة للأمريكيين: إنه يجيد الأمريكية أحسن من جورج بوش نفسه.. لم يكن مدنياً، كان عسكرياً في زي إعلامي، وبالتالي ثقافته العسكرية صنعت منه إعلامياً رهيباً. وأن خروجه المستمر للكلام عن الحرب أثار ليس غضب الأمريكيين بل حنقهم. كان الصحاف من أكثر المقربين إلى الرئيس العراقي دفاعاً عن النظام، بأسلوب لا يخلو من الكراهية للأمريكيين، وبالتالي بالتحدي لهم.

هذا الأخير (جورج بوش) قال عن الصحاف يوم ٢٠٠٣/٣/٢٥م: «النصر في الحرب لن يكفيني دون حصولي على لسان الصحاف!».. اللسان الذي كان خطيراً على الأمريكيين الذين اعتبروا المعركة الإعلامية ضد «الصحاف» مشابهة في ضراوتها المعركة العسكرية.

يوم الكارثة:

واليوم العاشر من الحرب كان كارثة بالنسبة للأمريكيين.. عدد القتلى في صفوف المارينز كان أكثر من المتوقع، والصمود العراقي كان أقوى بكثير مما حملته تقارير ما قبل الحرب عنهم، حتى العدد الإجمالي للحرس الجمهوري ولفدائيي صدام، ولجيش الأقصى كان متناقضاً. «أبراهام أرابيتش» المنسق العسكري في المخابرات الإسرائيلية وصل إلى واشنطن، في صباح كانت فيه العاصمة السياسية الأمريكية تعيش حالة من الفوبيا الحقيقية.

مجلة «نوتر إسرائيل» الصادرة في فرنسا كتبت في مقال: لا يبدو مهماً أن زيارة أبراهام أرابيتش إلى واشنطن جاءت في ظل الإحساس بالورطة الأمريكية في العراق، وأن أبراهام حمل إلى الصقور الأمريكيين مساعدات إسرائيلية. لكنها لم تشر إلى نوع تلك المساعدات. صحيفة «الفارديان» البريطانية كتبت دون أن تذكر اسم الشخص الإسرائيلي الموجود في واشنطن أن ثمة تنسيق بين إسرائيل والولايات الأمريكية فيما يخص الحرب على العراق. الخبر الأول لم يناقض الخبر الثاني، وبالفعل إسرائيل حملت إلى أمريكا تقريراً سرياً عن الجيش العراقي، وعن نقاط ضعفه وعن الأسماء التي يمكن التعاون معها، قائلة: «تلك التقارير جمعتها من بعض العسكريين العراقيين أنفسهم!».

رامسفيلد على المحك!

إن وزير الدفاع دونالد رامسفيلد الرجل القوي بعد عشرة أيام من الحرب بدا في أسوأ حالاته، كان شاحباً لحد المرض، وهو يحاول كل مرة تبرير الحرب. جهات

كثيرة بدأت بالضغط عليه، هو الذي خطط لحرب «الصدمة والترويع»، وصل به الأمر إلى حد التهديد بالاستقالة. الكل اعتبره السبب في فشل الخطة وبالتالي فشل الحرب. بعض الجنرالات الأمريكيين قالوا: إنه لم يؤخذ برأيهم في الخطة، طبعاً ليس صحيحاً؛ لأن الخطة لم تكن خارج اجتماعاتهم اليومية قبل الحرب، إنما كانت تلك طريقة للتنصل من مسؤولية السقوط التي كانت تلوح في الأفق.

«واشنطن بوست» ذهبت إلى حد توجيه نصيحة إلى رامسفيلد بإطلاق رصاصة على رأسه إن فشل في حربه تلك.. كانت الحقائق كلها تتوجه إلى الخسارة الأمريكية. لم يخف أحد مقارنة الحرب على العراق بالحرب على فيتنام. فيتنام أخرى ستجرد الأمريكيين من قوتهم إلى الأبد، وهذا كان أفظع ما يمكن تحقيقه الدخول إلى الحرب بالعنجهية الأمريكية التي دخلت بها. الحرس الجمهوري ظل يقاتل بشراسة، والشعور الأمريكي بالرعب جعلهم يطلقون النار على المدنيين انتقاماً من كل جندي أمريكي كانت جثته تهرَّب ليلاً إلى قاعدة عسكرية بألمانيا، أو إسبانيا.

موقع «دوتش دوت كوم» الألماني، في تقرير نشره في اليوم الحادي عشر من الحرب، كشف عن مصادر عسكرية موثوق منها داخل القاعدة العسكرية الأمريكية أن عشرات جثث الأمريكيين تصل بشكل سري إلى القاعدة الألمانية، منذ بداية الحرب، وهذا يتناقض مع الأرقام الضئيلة التي كانت تبثها وزارة الدفاع الأمريكية عن القتلى في صفوفها.. وهو تأكيد كشفه النائب الديموقراطي فرانس كورتس بأن الجنود الأمريكيين ضحية «دمويين داخل البيت الأبيض» (كان فرانس كورتس من أشد خصوم رامسفيلد).. كل هذا يؤكد أن التفوق العراقي كان ملحوظاً، على الرغم من المنحنى الخطير الذي اتخذته الحرب باستهداف المدنيين. فما الذي جرى كي تنقلب الأوضاع رأساً على عقب؟ سوف نعود إلى الكلام نفسه الذي أدلى به رامسفيلد بأن ثمة اتصالات بين البنتاغون والحرس الجمهوري.. لم يكشف ما نوع الاتصالات تلك، وبالتالي هل هي على مستوى عالٍ من الجيش؟ لكن المؤكد أنها كانت حقيقية.

اليوم الحاسم للمعركة كان بغداد نفسها. بغداد التي توعد رئيسها بأنها ستكون «مقبرة» للمغول (الخطاب قبل الحرب)، كانت العاصمة العراقية في غاية الأهمية في مستقبل الحرب كلها، لهذا كان الرهان كبيراً. وزير الإعلام العراقي قال: إن الأمريكيين سيدخلون بغداد على جثته. كان واثقاً من نفسه وهو يرد على الأمريكيين الذين استولوا على مطار صدام.. كيف يحدث ذلك؟.

سقوط بغداد:

سقوط بغداد بهذا الشكل السريع، في أيدي قوات الاحتلال الأمريكية وسط ذهول البعض وتوقع الآخرين، ومن دون «مقاومة تقريباً»، أثار حيرة الخبراء والمختصين والعامة من الناس الذين استغربوا تخلي الرئيس صدام حسين المفاجئ عن العاصمة بغداد، وعدم تسجيل مقاومة فيها، شعبية كانت أم عسكرية، بينما شهدت مدن أخرى أصغر وأقل أهمية بكثير مقاومة شرسة، وإذا كانت بلدة «أم قصر»، المعزولة في أقصى الجنوب، قد صمدت قرابة أسبوعين، فكيف يمكن أن تستسلم بغداد دون مقاومة؟

لكن الحقيقة التي جلبها هذا الحدث التاريخي - وفق مراقبين - أن الأنظمة العربية الحالية لن تستطيع تقرير مصيرها بنفسها خلال الفترة القادمة، فترة ما بعد سقوط بغداد التي مثلت نهاية نظام وبداية مرحلة لا يعلم أحد متى تنتهي ولا أين ستتوقف أقدام آخر جندي أمريكي على الأرض العربية تحت دعوى التحرير.

وصف وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد ما حدث من قيام القوات الأمريكية باحتلال بغداد بأنه يماثل سقوط جدار برلين. وادعى في مؤتمر صحفي بالبنتاغون أن سوريا ربما تساعد مؤيدي صدام حسين في الفرار، مؤكداً أنه لا يزال من الضروري العثور على أسلحة الدمار الشامل في العراق ووضعها في مكان آمن.

وفي اليوم نفسه من سقوط بغداد ٩ نيسان / أبريل أسقط عراقيون بمساعدة دبابة أمريكية تمثالاً ضخماً للرئيس صدام حسين كان منتصباً في ساحة الفردوس

أمام فندق فلسطين وسط بغداد. وقد نقلت شاشات التلفزة العربية والعالمية مشاهد لعدد كبير من العراقيين بادروا بالرقص والاحتفال فوق حطام التمثال.

الخبير العسكري الفرنسي «جان لوي ديفور» أستاذ في كلية «سان سير» العسكرية المرموقة، وأحد أبرز المختصين الفرنسيين في مجال «حرب المدن» يقول: من الواضح أن شيئاً ما غير عادي قد حدث. فسقوط بغداد بذلك الشكل المفاجئ ما يزال محيراً، والأكثر غموضاً هو مصير الرئيس صدام حسين وأبرز رموز نظامه، لماذا اختفوا فجأة وكيف وأين هم الآن؟.

أسرار سقوط بغداد:

سقطت بغداد، وفي محاولة لمعرفة حقيقة ما جرى قبل سقوط العاصمة العراقية أوردت مصادر عراقية موثوقة الرواية التالية: إن وزير الدفاع العراقي سلطان هاشم أحمد أكد في غير مناسبة أن الأمريكيين خططوا لهذه المعركة منذ زمن بعيد، وأن القيادة العراقية بدورها خططت لهذه المعركة منذ سبع سنوات، وتدرك تمام الإدراك أن القوة الجوية للقوات الأمريكية بالغة التفوق، وأن التكنولوجيا التي تستخدمها أمريكا لا قبل لأحد على مجاراتها في هذه المعركة، وأنه بناءً على هذه المعطيات فإن القيادة العراقية لجأت إلى أسلوب جديد من العمليات العسكرية يحفظ قوام الجيش العراقي من الاستنزاف في الحرب أو استدراجه إلى معارك في الوقت والزمان الذي تريده أمريكا، ثم القضاء عليه بالطائرات المقاتلة أو الأباتشي وغيرها. ويدرك وزير الدفاع العراقي أن البوح بأكثر من هذه المعلومات أمام الصحافيين يصبح من قبيل الانتحار[1].

وعندما أعلن محمد سعيد الصحاف بقاء المراسلين في فندق الميرونات ليلاً وذلك لإعلان أمر هام إذا بالمراسلين والساعة قد قاربت الحادية عشرة ليلاً يتفاجؤون بتواجد وزير الدفاع العراقي سلطان هاشم أحمد أثناء تولي الصحاف

(١) مفاجأة صدام حسين الثالثة: الهروب الكبير، مجلة المجلة العدد ١٢٠٩، ٢٠٠٣/٤/١٩.

إدارة المؤتمر الصحفي الذي استمر إلى الواحدة بعد منتصف الليل، عندها قام وزير الدفاع بمنع المراسلين الذهاب إلى منازلهم في تلك الليلة الشديدة القصف (٣١ آذار /مارس ٢٠٠٣م).

وقال وزير الدفاع بالحرف الواحد: «نحن نتوقع أن يكون الأمريكان على أسوار بغداد بين ٤- إلى ١٠أيام» ذُهل المراسلون.. وسأل مراسل صحيفة «الرياض» وزير الدفاع العراقي: هل قولكم عن الأمريكان على حدود بغداد بين ٤ ـ ١٠ أيام هل هو افتراض أم حقيقة؟!

فأجاب الوزير على السؤال بثقة مطلقة: في العلم العسكري ليست هناك افتراضات بل هناك حقائق؟

ويذهل الصحفيون للتصريح وتفرغ بغداد في اليوم التالي من أهاليها لدى سماعهم تصريح وزير الدفاع فما هي الخطة؟ وتفرغ بغداد من سكانها وكان هذا هو مخطط صدام لاستدراج الأمريكان، وكان كما يبدو يستعجل الحسم ويطلق على معركته «الحواسم» وكان مخطط صدام لإفراغ بغداد دون أن يأمر السكان بالإخلاء ودون ضجيج.

فما هو مخطط صدام حسين لاستدراج الأمريكيين إلى تخوم بغداد؟!!

علماً بأن صدام قد هدد في (خطاب سابق) الأمريكان بيوم أسود متوعداً ما أسماه « مغول العصر» بالانتحار على أسوار بغداد، ولم يقل صدام على أبواب العراق، وماذا يعني بأسوار بغداد؟.

فتساءل الجميع.. هل يمتلك صدام خطة حقيقية للمقاومة أم أنه أعد مفاجأة مذهلة للقوات الأمريكية؟! وبدأ القلق يستبد بالأمريكان جراء هذه التصريحات وشغفهم بمعرفة ما يجري وما تخفيه وراءها؟ وكانت خطة صدام لتدمير الجيش الأمريكي إذا ما وصلوا أسوار بغداد وهي خطة ذكية أوصى بها صدام لوزير دفاعه

في تسريب خبر يضم مفاجآت مذهلة، فقد اعتمدت تلك الخطة على الدفاع عن بغداد ومحيطها بمسافة ٢٥كم عن مركز العاصمة العراقية حيث تمكن العراق من تشييد سبعة خطوط دفاعية في مناطق الحقول الزراعية المحيطة ببغداد، وأن الفاصل بين كل خط دفاعي وآخر (٢٥٠٠) متر هي عبارة عن براميل من النفط الخام ومادة «تي. إن. تي» ومتفجرات شديدة أخرى وضعت بعمق ٥أمتار تحت سطح الأرض تحيط ببغداد في كافة الاتجاهات، حيث تضمنت الخطة ربط كافة هذه الخطوط الدفاعية «بكنترول مركزي» وكانت الخطة المصيدة كانت تقضي باستدراج الأمريكيين للوصول إلى المنطقة المحيطة ببغداد وبانتظار تمركزهم وآلياتهم، ثم يجري تفجير الخطوط الدفاعية من خلال الكنترول المركزي حيث تتحول المنطقة إلى جحيم وتُوقع هذه الخطة أعداداً هائلة في القتلى الأمريكان قدرت بـ ٢٥- ٣٠ ألف قتيل.

وكانت المخابرات الأمريكية قد اخترقت ماهر سفيان التكريتي وضمته إلى صفوفها، وكان عصب السيطرة على قوات الحرس الجمهوري المعوَّل عليها كل شيء، ولوّح صدام بتهديد الأمريكان بها، وقد وصلت المعلومات من ماهر سفيان التكريتي ابن عم صدام ويده اليمنى ومستشاره الخاص الذي كان بداية الخيانة عبر وسيط ثالث، وكان السيناريو المحكم قد تحطم بفعل ماهر سفيان التكريتي، كل شيء وصدام لا يدري ما يحاك له، وهو ينتظر وصول الأمريكان إلى تخوم بغداد، وقد قام الفريق أول الركن ماهر سفيان التكريتي ليأخذ الدور نفسه الذي اضطلع به الوزير ابن العلقمي إبان غزو المغول لبغداد في عام ١٢٥٨ميلادية عندما سلمهم مفاتيح بغداد على طبق من ذهب، وقد أعاد التاريخ نفسه فإذا بماهر سفيان معتمد صدام يصبح ابن العلقمي الجديد ليفجع العراقيين والعرب باحتلال بغداد (الحضارة العباسية) ويسلمهم مفاتيح بغداد، وقام بما يلي: تأتي طائرة أمريكية تقله وعائلته إلى الولايات المتحدة مع تسجيل رصيد له في أحد البنوك الأمريكية بـ ٢٥مليون دولار.

وكانت مصادر صحفية فرنسية قد ذكرت في حينه أنّ ماهر سفيان التكريتي قد عقد «اتفاقاً» مع الأمريكيين، قبل عام من ذلك، يقضي بعدم اشتراك مائة ألف عسكري من الحرس الجمهوري في القتال، وأنه اقتيد مع عائلته سرّاً في الثامن من نيسان / أبريل على متن طائرة «سي ١٣٠» إلى قاعدة عسكرية أمريكية.

وقد نفذ للأمريكان ما يلي:

١ـ سحب قوات الحرس الجمهوري الموجودة على محوري الحلة بابل طريق بغداد الكوت والزج بها في معركة مفتعلة أسموها معركة مطار بغداد الدولي، والقوات التي تم سحبها تعد نخبة الحرس الجمهوري الخاص وهي قوات «المدينة المنورة، وقوات نبوخذ نصر، وقوات الفاروق».

٢ـ تقديم خريطة كاملة بالخطوط الدفاعية السبعة حول بغداد والعمل لإبطال مفعولها وتخريب «الكنترول المركزي» المعد للتفجير.

أصدر الفريق الركن ماهر سفيان بصرف عناصر القوات إلى بيوتها وترك الأسلحة الثقيلة منها خاصة في مواقعها القتالية، وفي هذه الأثناء كانت وكالات الأنباء تذيع أنباء عمليات الإنزال للقوات الأمريكية بجوار مطار بغداد الدولي وبالتحديد منطقة أبي غريب التي تجاور إحدى المناطق السكنية وأخرى مكشوفة، وإلى جوارها مانع مائي صعب يصعب اختراقه يسمى «ذراع دجلة»، وبالقرب من تلك المناطق توجد معسكرات المعارضة الإيرانية التي يمثلها مسعود رجوي وقوات «مجاهدي خلق» والتي تحمل العراق مسؤولية استضافتها (سنين) طويلة والقريبة من مطار بغداد ليعقدوا «صفقة مع الأمريكان» وينسحبوا إلى داخل بغداد إلى نادي الفارس العربي بعد أن سلموا معسكراتهم للقوات الأمريكية في حلقة خيانة جديدة مساعدة تمت كما تقول المصادر العسكرية في يوم ٤/٦/ ٢٠٠٣م عندما أعلنت القوات الأمريكية أنها استطاعت الوصول إلى مطار بغداد.

وعند المطار توجد قرية «الرضوانية» التي تضم عدداً من القصور الرئاسية والتي يتواجد بالقرب منها لواءان عراقيان مجهزان بأحدث أنواع الأسلحة

ومهمتهما توفير الحماية، وهما بإمرة آمر اللواء الركن محمد مصطفى عزيز الذي أدرك بحدسه العسكري وعبر اطلاعه على حركة (مجاهدي خلق) أن هناك «خيانة واضحة» قد وقعت فعلاً، فحاول على الفور الاتصال بقيادته ولم يتلق جواباً، وتصرف كقائد تلقائياً بعد أن قدر خطورة الموقف، فحرك قواته وافتعل برقية حرك بها القوات تحمل الرقم «٧٦ أ» وحدد ساعة الشروع أو التحرك ٧,٣٥ مساءً، وحملت البرقية توقيع صدام حسين، ثم سرعان ما بعث بها إلى آمر اللواء الثاني، بمقتضى ذلك الأمر تحركت قوات اللوائين وقامت بعملية التفاف عكسية خلف المنطقة المكشوفة بالقرب من المطار، وهي منطقة بساتين، وبدأت تلك القوات بمعركة عنيفة ضد القوات الأمريكية في الساعة ٨,٤٥، في مساء ذلك اليوم تكبد فيها الأمريكان خسائر فادحة بلغت أكثر من ٦٠٠ قتيل وبمثله من الجرحى، وخسرت القوات العراقية ١٥٠٠ قتيل من الضباط والجنود العراقيين، و إن قائد اللواء العراقي اللواء محمد مصطفى عزيز وقع في أسر القوات الأمريكية، وكانت واحدة من أخطر المعارك التي واجهت الأمريكان فوق الأرض العراقية[1].

يقول الدكتور صباح الناهي- المراسل لصحيفة الشرق الأوسط- لقد انقطع كل شيء بين غرف العمليات السرية التي كانت معدة في بيوت ومناطق سكنية، ولم يعد بالإمكان أن تتصل القيادة فيما بينها إلا بحدود دنيا، حتى اليوم السابع من نيسان، إبريل عندما دخلت القوات الأمريكية «مطار صدام الدولي»، وسارعت في بث صور عن دخولها بواسطة «الفيديوفون» الذي حمله الأمريكيون معهم وأظهروا للعالم أنهم وصلوا إلى بغداد، ذلك المطار الذي يبعد عشرين كيلومتراً عن أقرب حي سكني في بغداد، مستبقة محاولات اختراق للعاصمة من الضواحي الجنوبية عبر آليات محمولة.. واجهت كثافة نار شديدة من الميليشيات التي حاولت صدها في بادئ الأمر.. مما اضطر الرئيس إلى أن يجد في ذلك بداية انهيار عسكري غير متوقع، فجمع فلول بعض قياداته يوم ٨ نيسان / أبريل في جامع أم الطبول، وتسرب لنا أنه

(١) صحيفة الرياض العدد: ١٢٨٤٧، الأحد ٢٦ جماد الثانية ، ١٤٢٤

تحدث معهم بقسوة حيناً، وترجى أن يبعدوا تلك القوات الغازية خارج المطار وقال لهم: كيف تصمد مدن الشيعة ولا تصمد بغداد المحمية بالحرس الجمهوري؟ وشدد عليهم بأن يخرجوا تلك القوات وبأي ثمن ووسيلة. بل طلب أن يُصلي في المطار، مما دفع تلك القوات إلى أن تندفع باتجاه المطار بعد ضربه بصاروخين أرض ـ أرض من نوع «الصمود» أطلقا من حي العدل القريب من المطار. وقيل إنهما تسببا بمقتل أعداد من القوات الأمريكية، مما اضطرها للانسحاب إلى الخط السريع الذي يربط بين مدينة الفلوجة في الغرب باتجاه مناطق الفرات الأوسط. ورأيت بأم عيني تلك القوات من ألوية الحرس الجمهوري وفدائيي صدام تندفع ليلاً إلى المطار من خارج سياج الطريق العام الموصل له. لكن لم يرجع أحد منهم.. أين اختفوا؟ بأية أسلحة ضربوا؟[1].

ولم يكن الفريق الأول الركن ماهر سفيان هو الخائن الأول بل شاركه في الخيانة على حد ذكر المصدر العسكري الذي تحدث لصحيفة «الرياض» الفريق الأول الركن حسين رشيد التكريتي سكرتير القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية والذي مكن بخيانته القوات الأمريكية من الدخول إلى منطقة «الدورة» انطلاقاً من منطقة «هور رجب» ومشاركة ابنه الرائد علي حسين رشيد التكريتي السكرتير الشخصي لـ «قصي» نجل الرئيس العراقي والمشرف على قوات الحرس الجمهوري. وكوفئ الوالد والولد بـ «٥» ملايين دولار نقداً دفعة أولى بالإضافة إلى ترحيلهما مع عائلتهما إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد لعب الفريق حسين رشيد التكريتي الدور الأساسي في إصدار التعليمات للقوات المسلحة العراقية بمغادرة مواقعها استناداً إلى قرارات تم تزويرها ونسبها لوزير الدفاع الفريق الأول الركن سلطان هاشم أحمد. أما ولده علي حسين رشيد التكريتي سكرتير «قصي» نجل الرئيس العراقي فقد قدم معلومات خطيرة فيما

(١) صحيفة الشرق الأوسط: ١أيار / مايو ٢٠٠٣م.

يخص خطة تأمين بغداد والتي كان «قصي صدام حسين» يشرف عليها وعلى تنفيذها، يعاونه ضابط نقيب هو عدنان يوسف حسن التكريتي والذي كان يتولى مهمة حماية الأماكن الخاصة والبديلة للرئيس العراقي صدام حسين وهي حوالي ٥٠ موقعاً، وكان الرئيس يتنقل بينها ويعقد اجتماعاته، وكانت أجهزة صدام قد شككت في ولاء الضابط وراحت تتتبعه وتوصلت إلى بعض المعلومات في عمالته للمخابرات الأمريكية عندما رفعت المعلومات لصدام، فقام صدام بالتأكد فسرب معلومات للضابط المذكور بأن اجتماعاً سيعقد قرب مطعم الساعة في المنصور يملكه مصري صديق لعدي صدام يدعى أبو الوليد، وفي يوم ٢٠٠٣/٧/٤ م جاء صدام في الموعد المحدد بصحبة نجله قصي في سيارة تكسي Sanny دخل من الباب الأمامي وخرج بسرعة من الباب الخلفي، وما هي إلا دقائق كان المطعم والمنطقة تقصف بقنابل خاصة زنة ١٠٠٠رطل للقنبلة الواحدة، وهنا تأكد صدام من عمالة النقيب عدنان يوسف للأمريكان واعترف بذلك وعثر في حوزته على هاتف نقال «ثريا» مربوط بالأقمار الصناعية فأعدم على الفور بأمر من صدام رمياً بالرصاص.

وكان يعاونه في ذلك المشرف على قصور، الرضوانية «عيسى عبد الأحد» مسيحي مسؤول عن ترتيب القصور وقد شكوا بتحركاته داخل القصور يلتقط حركات صدام ليعطيها إلى الضباط إذا كانت أخبار سريعة عن التنقلات بجهاز ثريا آخر يحمله بالخفية. وبعض المعلومات ذات الصفة غير السريعة إلى «سائق أردني» ترسله المخابرات الأردنية منضماً إلى المخابرات يتردد على بغداد باستمرار.

ويتصل السائق الأردني بعيسى عبدالأحد ويتقابلا في تلك الليلة في نادي المشرق، حيث يتسلم السائق الأردني المعلومات ليسلمها إلى عمان حيث تأخذ طريقها إلى ضابط عراقي برتبة عميد فرّ من العراق بجواز سفر مزور وبمهنة «تاجر» قام هذا الضابط بتجنيده لقاء مبالغ ضخمة، وقد هرب الضابط بجواز سفر مزور بمبلغ ٥ ملايين دينار، وسجل على مهنته مهنة تاجر بدلاً من ضابط،

فساعدته أمريكا في الهرب، وكان هذا هو الخط الأول في العمل ضد دولة صدام، ويقول مثل عراقي: لا يقع إلاّ الشاطر!!.

كان عيسى عبد الأحد يعرف كل شيء عن صدام في غرفة نومه إلى طعامه إلى هواتفه التي يجريها، بل يحصي عليه أنفاسه وهو المقرب إليه حسب المصادر الموثوقة، وقد تأكدت عمالة عيسى عبدالأحد فأعدم هو الآخر.

وكان هذا هو الخط الأول في المخابرات التي وصلت إلى غرفة نوم الرئيس، فقد كشف مشاركون في عملية سرية أمريكية نفذتها عناصر من وكالة المخابرات المركزية CIA بالتعاون مع معارضين ومنفيين عراقيين في الخارج عن جهود مكثفة سبقت اندلاع الحرب بثلاثة أشهر لبناء تحالف مع قادة عسكريين عراقيين وإقناع مئات القادة العسكريين العراقيين بعدم القتال وإرسال جنودهم إلى المنازل عند اندلاعها.

وكان من بين من شملت الاتصالات الأمريكية وخانوا صدام حسين وسهلوا سقوط النظام هم: الفريق عبد الجليل حبوش رئيس الاستخبارات العسكرية، وجمال مصطفى السلطان صهر صدام حسين وزوج ابنته حلا الذي كان مسؤولاً عن العلاقات مع العشائر، وأحمد حسين مدير ديوان الرئاسة، وأكرم عطا مدير الجهاز الإداري في الرئاسة.

وأغدقت أمريكا الأموال بلا هوادة، وشمل ذلك وزير الدفاع العراقي أيضاً الفريق أول الركن سلطان هاشم أحمد الطائي وهو ليس تكريتياً - الجميع يعرف كيفية استسلامه للقوات الأمريكية بعد سقوط بغداد - وليس في عائلة صدام ولا من أنسابه، أما كيف تمت السيطرة على وزير الدفاع فهذا غير معروف.. للتعاون والعمل معه لإنهاء الحرب سريعاً عندما تقع وضمان تحقق وقف إطلاق النار، لكن مخطط الحرب الأمريكي فضل عدم الاستفادة منهم ومن غيرهم من القادة العراقيين للمساعدة في تحقيق السلم في العراق لقاء أموال طائلة.

وكشف المصدر الموثوق عن الاتصالات التي كانت تجريها وكالة المخابرات المركزية وبعض الضباط العراقيين التي سهلت مهمة سقوط بغداد وانتهاء الحرب بصورة سريعة، إلى جانب الاتصالات التي بدأت قبل الحرب مع مجموعة من المنفيين وبجهود سرية مكثفة لتشكيل تحالف مع قادة الجيش العراقي في نهاية العام ٢٠٠٢م، وقالت المصادر: إن هناك شخصيات عراقية ومسؤولين من أقطار عربية شاركوا في الإعداد لهذه العملية من الاتصالات الأمريكية بضباط الجيش العراقي التي بدأت منذ التاريخ المذكور عن طريق ضباط في المخابرات الأردنية يتعاونون مع واشنطن، وأن قوة المهمات الخاصة «٢٠» هي التي تولت هذه العملية، وأجرت الاتصالات والقيام بزيارات، ودفع مبالغ مالية كبيرة.

إضافة للقصف الذي تعرضت القوات العراقية له، وهي الأسباب الرئيسة للمقاومة الضعيفة التي يمكن أن تكون والتي تجابه بها القوات الأمريكية إثر تقدمها صوب بغداد، وتلقت إدارة جورج بوش أخباراً تفيد أن مسؤولين عراقيين على مستوى وزير الدفاع ربما يكونون مستعدين للتعاون مع الأمريكان لوضع نهاية سريعة للحرب، والمطلوب أن يبدأ الضباط العراقيون بأعمال تخريبية وتسريح جنودهم في بداية الحرب التي لا يعجز صدام من حروبه، وأن ظهور الفريق أول الركن سلطان هاشم أحمد الطائي في التلفزيون هو بمثابة كلمة «السر» بإيقاف الحرب وتعطيل الآلة العسكرية العراقية، وأن المخابرات الأمريكية سمحت بهروب الكثير من الضباط خارج العراق وأن وزير الدفاع قد تم احتواؤه منذ العام ١٩٩٥م، وأن «برونر» مسؤول المخابرات قد ساعد على نقل الرسائل المهمة، وأن أشخاصاً في مجلس الحكم الحالي كافأتهم المخابرات على فعلتهم وهم الدكتور «أ. ع» الذي كان قيادياً في حزب البعث، وكان «برونر» المسؤول السابق في المخابرات المركزية والذي عمل ممثلاً لرجل الأعمال العراقي سعد الجنابي و «أ. ع» ومحمد عبدالله الشهواني أحد الجنرالات العراقيين السابقين والذي كان مشاركاً فعلياً في المحاولة الانقلابية التي دعمتها واشنطن عام ١٩٩٦م ضد صدام حسين.

كما كان هناك أشخاص مهمون أنصارهما عبد الكريم محمداوي وهو من زعماء الشيعة في الجنوب والثاني مشعان الجبوري وكان يسمى في بغداد بمشعان ركضان ضامن وهذا هو اسمه، وقد اغتيل بعد سقوط بغداد إثر عداوات، ولتهجمه على قيادات عراقية وعربية وعلى رموز للقومية العربية، وكان هؤلاء ينخرون في جيش صدام كما «تنخر» الأرضة في الخشب!! وهم ينسقون أولاً بأول لنجاح مهمتهم وسقوط صدام.

وعند المواجهة لم يحارب أحد إلاّ البعض وهم قلة أولاً لاعتقادهم بأن حروب صدام أصبحت بلا عد ولا حصر، وثانياً أنهم يعتقدون كما قال ماهر سفيان المعركة بين أمريكا وصدام وما شأني بها؟!!.

لقد قاد صدام وحيداً حسب المصدر الموثوق معركة المطار ميدانياً إزاء تخاذل الحرس الجمهوري عصب الجيش العراقي الأول، كما تخاذل طيران الجيش ورفضه إسناده، بل الذي قاتل هم الفدائيون والحزبيون المخلصون، وقتلوا مئات الأمريكان، وإن كان الأمريكان لا يعلنوا حجم قتلاهم بالضبط شأنهم شأن الإعلام الإسرائيلي.

وقد طهر صدام المطار و أبو غريب ونفق الشرطة وساحة الاحتفالات، لكن التلاعب بدأ في البصرة، ضباط الجيش تركوا الفدائيين بمفردهم وانسحبوا لدى قصف الطيران معسكراتهم، وقوات الحرس الجمهوري اختفت عن مواقعها بعد معركة المطار، و(التململ) الذي بدأ في البصرة انتهى ببغداد ليفيق العراقيون على الأمريكيين وهم في باحة القصر الجمهوري والأسلحة الثقيلة تملأ الشوارع ولا يقف وراءها ليستعملها، والصواريخ مربوطة على مراكز الإطلاق خالية من المقاتلين، فلقد ذهب المقاتلون إلى بيوتهم، ويعترف صدام في الأعظمية: «لقد خانني أولاد عمي» وتسقط بغداد سقوطها المريع والمذهل والصدمة ستظل تلازم هذا الجيل إلى الأبد.

وقال ضابط كبير من ضباط القيادة العامة في غرفة العمليات: إن أجواء صدمة سقوط بغداد كانت تسيطر على الجميع، وفي تلك اللحظات شاهدت صدام

حسين يترنح على «السلم» المؤدي إلى غرفة العمليات من شدة الصدمة التي حلت به حينما أخبره الضابط بأن الحرس الجمهوري قد تفرق وانسحب بغير انتظام من أرض المعركة أو أن الدبابات الأمريكية باتت على مستوى النظر، وهي على مسافة قريبة من غرفة العمليات.

وأضاف الضابط إن صدام تفاجأ بالخبر وكان غير مصدق، وكرر السؤال عدة مرات ولكنه لم يجد غير ذات الجواب «الأمريكان دخلوا بغداد» وتمهل قليلاً وكاد أن يتهاوى على الأرض، فأسنده بعض مرافقيه، وأخذ يرمق الضباط الذين أصابهم «وجوم قاتل» وحسرة شديدة ممزوجة بالألم. وبعد إلحاح من نجله «قصي» والجنرال سيف الراوي اضطر صدام لمغادرة غرفة العمليات حتى أدرك الحقيقة المرة التي تشير إلى إن الهزيمة حلت بالجيش العراقي على مختلف صنوفه، وأن على الجميع الإقرار بالأمر الواقع.

وأضاف الضابط: إن صدام استدار نحو ضباطه وجنوده القلة المتبقية وقال لهم: ماذا تقولون وما الحل؟ وقد أشار أحد الضباط وهو من مدينة تكريت بالتجمع قرب جامع (أم الطبول) مدخل طريق المطار وخوض المعركة الأخيرة، وصمت صدام قليلاً، ثم قال: لا بئس لنذهب إلى هناك، وتساءل كم معكم من الرجال المقاتلين وإذا بصوت خافت يطبع عليه الحزن والخذلان يقول له سيدي: «٤٠٠مقاتل فقط!!».

وسار بهم حتى وصلوا إلى ميدان جامع أم الطبول، وفوجئوا بحجم الدمار والقتلى على الأرض وما أحدثه القصف الجوي الأمريكي قرب جامع أم الطبول، وأمسك صدام بالقاذفة R.B.G.7 بيأس وألم وقال للمقاتلين: «قاتلوا ولن تكون معركتنا الأخيرة، سلاحهم قوي ولنكن أقوياء بإرادتنا».

وفي هذه الأثناء والكلام للضابط الكبير - لاحت أمامنا أرتال من الدروع الأمريكية وهي تتجه من المطار صوب ميدان جامع أم الطبول، وهنا التفت صدام نحو نجله قصي وسيف الدين الراوي «معاتباً وموبخاً» لهما بشدة ومستفسراً عن

سبب هذا الانفلات وعدم التنسيق بين قطاعات الحرس الجمهوري ومن هو المسؤول عما حدث من كارثة، ولم يجد الجواب الشافي، حيث أطبق الصمت الرهيب على الجميع فانسحب صدام إلى منطقة (الأعظمية) ملاذه الآمن. وهناك ظل صدام يسأل عن ماهية الخيانة، وهل حدثت بالفعل من قبل حسين رشيد التكريتي وماهر سفيان، كان السؤال موجهاً لقصي، وقال له: لقد وعدتني يا قصي بحسن القيادة والتنظيم فلماذا حدث ذلك؟

ثم إذا كنت لست أهلاً للمعركة كان الأجدر بك إخباري وسترى كيف أقلبها «عاليها على واطيها»، وهنا وصل أحد الضباط وقال لصدام: سيدي لقد وصلوا منطقة الإسكان والمنصور والمناطق المجاورة، وغداً صباحاً سيكونون في الأعظمية، فقال صدام: «لا عليك المعركة تحمل كل شيء الخسارة والريح» سننتظر هنا حتى الصباح وليكن ما يكون وكل شيء بأمر الله.

ثم قال للحاضرين: استعدوا لمعركة الصباح أنتم ومن معكم، وفي صباح اليوم التالي عبرت القوات الأمريكية إلى منطقة الأعظمية، ودارت معركة عنيفة استمرت زهاء الثلاث ساعات، اضطر العراقيون تحت وطأة القصف الجوي إلى الانسحاب من أرض المعركة إلى المجهول، وهنا اختفى صدام حسين ولازال مكان وجوده مجهولاً رغم محاولات الأمريكيين البحث عنه[1].

ويعد هذا السقوط لبغداد هو السقوط الثالث لها بعد دخول المغول عام ١٢٥٨ م على يد«هولاكو»، ودخول الجنرال البريطاني «مود» لها عام ١٩١٧، ودخول قوات المارينز الأمريكي عام ٢٠٠٣، لكن هذا السقوط هو الأكثر دلالة؛ لأنها سقطت وهي تملك أحد أهم الجيوش العربية. كما كان يقال.

(١) صحيفة الرياض: العدد ١٢٨٩٠، الإثنين ٩ شعبان ١٤٢٤.

جنرالات في الجيش العراقي يكشفون أسرار الانهيار السريع لقواتهم:

قال كبار الضباط: إن الرئيس صدام حسين لم يهزمه فقط الدمار الذي أوقعه به الأمريكيون، بل هزمه كذلك جيشه النظامي، الذي لم يكن يشعر بأي ولاء لقائد كان يدفع مرتبات أفضل لقواته الخاصة، كما كان يخيف الجنرالات ويجبرهم على الكذب حول الحالة المزرية التي صار إليها جيشه.

ومع أنه لم يكن ممكناً التأكد من صحة الروايات التي أوردها هؤلاء القادة، إلا أن انسجام الروايات التي أدلى بها قادة الوحدات الميدانية ووحدات الرئاسة والقوات الخاصة أعطت هذه الروايات مصداقية إضافية. وقد طلب عدد قليل من هؤلاء الضباط عدم ذكر أسمائهم.

وأجمع كل القادة على أنه رغم قلق القوات الأمريكية إلا أن أياً من الوحدات لم تزود بأسلحة كيماوية أو بيولوجية. ومع أن القادة العسكريين الأمريكيين كانوا يخشون حدوث حمامات دم في شوارع بغداد، إلا أن كل القادة أكدوا أن قواتهم لم تصدر إليها أية أوامر بالتراجع إلى بغداد وشن حرب مدن من داخل المدينة. وقالوا: إن جنودهم هربوا وتراجعوا حفاظاً على حياتهم. وقال بعض القادة: إنهم وجهوا جنودهم للتراجع وحماية منازلهم وأسرهم، ولكنهم لم يطلبوا منهم شن هجمات على القوات الأمريكية.

ونجد اليوم أن هؤلاء الضباط والجنود العراقيين الذين يفوق عددهم ٤٠٠ ألف، من أكثر المواطنين العراقيين حرماناً وحنقاً. وبالنسبة لكبار القادة الذين وهبوا حياتهم لهذه المؤسسة التي كانت تحظى بكثير من الاحترام، ونالوا من وراء ذلك مزايا مالية كبيرة مقابل الحروب السابقة التي انتصروا فيها، فإن هذه النهاية كانت مرعبة وجارحة. قال الجنرال محمد علي جاسم «٥١ سنة» الذي عمل ٣١ سنة في الجيش، وكانت قواته بالبصرة أثناء الغزو:

«بكيت بعد سقوط بغداد. لم أبك حتى عندما قتل ابني في حادث وهو صغير. ولكنني بكيت عندما فقدنا بغداد. شعرنا بالعار. نحن قادة عسكريون».

جيش أضعفته الانقسامات، كان العميد حسن القباني « ٤٦ سنة» يقود فرقة دبابات بالحرس الجمهوري، وهي القوة الطليعية الأفضل عتاداً وعناصر من بقية الأقسام الأخرى بالجيش. وقال: إنه بعد ١٢ يوماً من الحرب، عندما كان الجنرالات الأمريكيون ما زالوا يتحدثون عن معارك شرسة متوقعة مع الحرس الجمهوري، كان هو قد فقد أي اتصال له مع قيادته. وبدأ جنوده يهربون في موجات متلاحقة منذ ٣ نيسان / إبريل أي قبل يوم من تحول دباباته إلى هيكل حديدي محروق بعد أن أصابتها القاذفات الأميركية. قال القباني: «٧٠٪ من جنودي ذهبوا إلى منازلهم. وقد توصلت إلى أننا لا نملك أية فرصة في النصر؛ ولذلك سمحت لهم بالذهاب. تراجعنا دون قتال. لم تعد هناك فائدة.. وكان الجميع يعرفون أننا سنخسر أمام الأميركيين».

كان الانهيار السريع للقوات الطليعية العراقية مثاراً للدهشة من قبل الأميركيين والقادة العراقيين في الوقت نفسه. ولكن القادة العراقيين من الجيش النظامي ومن القوات الخاصة يعتقدون أن الهزيمة لم تكن فقط بسبب القصف الأمريكي، بل نتجت عن الخواء الذي نشأ في قلب قوات مسلحة قامت على الخداع وانعدام الثقة وإساءة استخدام السلطة.

وكان صدام حسين يعيد تكوين قواته منذ حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١، تحديداً لتفادي مثل هذا المصير. وبعد فشل الانتفاضة الشيعية بجنوب العراق، أصبح صدام لا يثق بجيشه الذي يضم في صفوفه كثيراً من الضباط والجنود الشيعة؛ ولذلك شرع في تكوين القوات الخاصة التي تعمل خارج قيادة الجيش النظامي. قال العقيد عبد الرزاق، الذي قضى حوالي ٢٣ سنة في سلاح المشاة:

«صنع صدام جيوشاً صغيرة لحماية قبيلته ومصالحه وأسرته. وكان يخاف أن يتمرد الجيش النظامي عليه».

شكل صدام حسين الحرس الجمهوري الخاص، الذي كان عدده يقدر بـ ١٥ ألفاً إلى ٢٥ ألفاً، ونصب ابنه قصي قائداً له. وفي عام ١٩٩٥ كون منظمة فدائيي صدام المرعبة، وتتكون من عشرات الآلاف من الشباب، وكان المقصود منها قمع أي

تحرك داخلي أو مظاهرات. وكانت ميليشيا فدائيي صدام بقيادة ابنه الأكثر قسوة عدي، وعند بداية الانتفاضة الفلسطينية في آب / أغسطس عام ٢٠٠٠ شكل صدام جيش القدس، وهو قوة عسكرية متخصصة لقتال الإسرائيليين. قال العميد رشيد إسلام «٥٦ سنة» والذي قضى ٣٤ سنة في وحدة مشاة بالجيش العراقي: «لم يكن هناك أي تنسيق بين هذه الجيوش. وهي تكره بعضها البعض».

وقال جنرال بالجيش النظامي مسؤول عن وحدة دفاع جوي ببغداد أنه تلقى أوامر بعدم تشغيل أسلحته؛ لأن الحرس الجمهوري هو المسؤول عن الدفاع عن بغداد.

وقد ساعدت الأفضلية والامتيازات التي نالتها القوات الخاصة على توسيع الهوة بينها وبين الجيش النظامي. ولم يكن ضباط الجيش النظامي يتقاضون أكثر من ثلث المرتبات التي تتلقاها هذه القوات الخاصة، كما كانت تحظى بقدر أقل من الاحترام وتتسلم معدات أرداً كثيراً من حيث نوعيتها. قال العقيد جمال سالم «٤١ سنة» قائد العمليات في إحدى قواعد الإمداد الرئيسة على بعد ١٥ ميلاً من بغداد:

«لم نكن نعمل من أجل صدام حسين. كنا نعمل من أجل البلاد. وكان ذلك واجبنا. إنني أحب الجيش. ونحن لم نقاتل الأمريكيين. وعندما سمعنا أنهم داخل بغداد، كان كل شيء قد انتهى».

الانقسامات عميقة وشائعة حتى داخل الجيش النظامي. وقال كبار الجنرالات إن صدام حسين كان يتبرع بصورة منتظمة بسيارات جديدة وساعات رولیكس وأموال لكبار الجنرالات، وقد شهد بذلك بعض الذين تسلموا مثل هذه الهدايا. وقال العقيد أبو علاء زهيري «٤٥ سنة» والذي عمل ٢٣ سنة، بوحدة صواريخ:

«كان الجيش قد سئم الوضع وأصابه إرهاق شديد بعد خوض ثلاث حروب. وكان القادة يتلقون هدايا كثيرة، بينما كان الجنود يتضورون جوعاً».

في الأيام الأخيرة للحرب، وبعد أن دمرت المعدات، وبعد أن تفرق قادته في غير انتظام، وهرب زملاؤه، قال النقيب أحمد حسن «٣٨ سنة» والذي كانت وحدة المشاة التي يقودها مسؤولة عن الدفاع عن مدينة كركوك الشمالية، أنه فقد أي دافع يحمله على القتال. وقال متذكراً:

سألت قائدي: «لماذا أنتظر؟ الناس ورائي يتراجعون. وقد جردت نفسي من رتبتي وودعت كل شيء عرفته لمدة ١٣ سنة».

وقال كبار القادة: إن نظام الرشاوى الذي كان يسير عليه صدام، أفرخ جواً من الخديعة والتضليل جعل صدام يعتقد أن قواته تدخل هذه الحرب وهي أفضل عدة واستعداداً مما كانت عليه في الواقع. وذكر الجنرال ياسين محمد طه الجبوري، ضابط المدفعية الذي عمل ٣٨ سنة بالجيش النظامي، أنه استدعي إلى اجتماع مع الرئيس عام ١٩٩٩، وأن الأخير طلب منه مساعدة وزارة الدفاع في بناء أكبر قطعة مدفعية في العالم. وقد صمم الجيش، بمساعدة بعض المختصين، مدفعاً قطره ٢١٠ ملليمتر، أي أكثر من ثماني بوصات. ولأن المدفع كان بهذه الضخامة فقد كان الجبوري والمختصون يعلمون أنه لن يعمل. ولكن مع ذلك واصل الجبوري إكمال التصميم وأعد وثائق أداة مزورة لإقناع الرئيس أن المشروع يسير على خير وجه.

قال الجبوري:

«لا يمكن لأحد أن يخبره بأن فكرته لا تصلح، وكان يجود علينا بالجوائز والهدايا».

في صباح ١٦ آذار / مارس، أي قبل أربعة أيام من بداية الحرب، كان الجنرال كريم سعدون، القائد بسلاح الجو الذي قضى ٢٥ سنة بالقوات المسلحة، من ضمن ١٥٠ من كبار الضباط الذين نقلوا إلى مجمع تحت الأرض خارج بغداد. كان صدام حسين جالساً على المنصة وكان ابنه قصي يقف إلى جانبه من وقت لآخر ليشعل له سيجاره الكوبي، بينما كان هو يحاضر ضباطه عن الحرب وسط سيل من الإساءات للولايات المتحدة. وعندما فتح صدام الباب للتعليقات تقدم سعدون وقال:

«نحن مستعدون للقتال من أجل بلادنا. نحن نأمل ألا تكون هناك حرب، ولكنها إذا جاءت فإننا مستعدون للموت».

وقال سعدون: إنه وكل الذين تحدثوا ذلك الصباح عن استعداد قواتنا للقتال، كانوا يكذبون. كانوا خائفين من قول الحقيقة للرئيس، فقد كانت طائراتهم ودباباتهم وأسلحتهم الأخرى على درجة من البلى بحيث لا يمكن أن تصمد أمام الأسلحة الأمريكية. وأضاف:

«كنا نعرف أنه لا توجد أية طريقة لقتال الأميركيين. وكنا نعرف أننا سنخسر الحرب».

قبل أن يغادر الجنرالات القاعة، سلم مساعدو صدام كل واحد منهم مليون دينار عراقي نقداً (وكانت تساوي ٥٠٠٠ دولار). وقال سعدون: إن الرئيس بدا شاحباً ومرهقاً، وكان وجهه مصفراً. ولم يكن نفس صدام الباسم المرح الذي شاهده سعدون عام ٢٠٠١ في اجتماع مشابه، كانت هديته حوالي ٢٠ ألف دولار.

في أواخر شهر شباط / فبراير ٢٠٠٣ أمر السلاح الجوي بتفكيك طائراته، حسب شهادة سعدون وغيره من ضباط السلاح الجوي. وقد فكت الأجنحة من الطائرات، وهو تمرين ظلت القوات الجوية تمارسه منذ حرب الخليج عام ١٩٩١، وكانت هذه تخفى في المزارع والأحياء السكنية. وقال سعدون: إن الطيارين أصبحوا من المهارة بحيث يمكنهم فك أجنحة طائرة الميغ ـ ٢١ في ساعتين فقط.

كان العراق قد فقد كثيراً من طائراته في حرب الخليج، عندما دمرتها الطائرات الأميركية في الجو وفي الأرض، وعندما رفضت إيران إعادة أكثر من ١٠٠ طائرة قادها الطيارون العراقيون إلى البلد الجار، تفادياً لتدميرها. وعندما شنت هذه الحرب لم يكن لضباط السلاح الجوي أي عمل يمكن القيام به. قال العقيد ديار عبد «٣٦ سنة» وهو قائد جناح بجنوب بغداد:

«لم تكن لدينا أوامر. ظللنا باقين في القاعدة. وفكرت أننا فقدنا بلادنا. لماذا لا يصدرون لنا الأوامر؟ لم يكن قادة القاعدة يعرفون ماذا يعملون».

وقال سعدون: إن أغلب القواعد الجوية ليست لديها دفاعات. وقال:

«أعطونا كلاشنيكوف فقط لا غير. لم يعطونا أية أسلحة دفاع جوي. وقلنا لهم: هل يمكن أن تعطونا قنابل تطلقها الصواريخ؟ فقالوا: لا».

قبل أسبوعين كانت القاعدة الجوية قد فقدت اتصالها مع الرئاسة التي لا تبعد عنها أكثر من عدة أميال. وقال سعدون: إن بعض الضباط كانوا يحضرون بعد كل يومين وفي يدهم رسائل مكتوبة وأخرى شفهية عن أوضاع الحرب. وقد وصل المبعوث الأخير قبل سقوط بغداد بيومين.

لا حماسة للقتال:

قال عبد الرزاق الذي قضى أكثر من نصف عمره في الجيش: «كنا مستعدين للقتال».

وكانت قواته ومعداته قد تحركت قبل عشرين يوماً من الهجوم الأمريكي، من القواعد العسكرية إلى المخازن والمدارس والمنازل الخاصة. وقال: إن قواته كانت مسلحة تسليحاً جيداً، بالمدفعية الثقيلة والصواريخ المضادة للدبابات، ومدافع المورتر والآر بي جي، والكلاشنيكوف استعداداً لقتال الشوارع.

وقال العقيد:

«ولكن مع ذلك، لم يكن أحد يتوقع أن ينفذ بوش تحذيراته بالغزو، وكنا نتوقع أن تقف كل الدول العربية ضد بوش وتوقف الحرب».

وقال عبد الرزاق: إنه كان يقود وحدة من الجيش النظامي تتكون من ١٥ ألفاً، ولكن الجيران يقولون: إن العقيد اختير قبل عامين لقيادة وحدة من الفدائيين. وكانت مهمة وحدته هي حماية تقاطع طرق هام على أطراف بغداد، وهو موقع توكل حمايته عادة لأكثر القوات ولاء لصدام. وكان عبد الرزاق يشير مراراً إلى الفدائيين

أثناء كلامه. في الأيام الأولى للحرب، كانت الأخبار التي تصل من الجنوب ترفع من الروح المعنوية لقواته. وقال:

«كل الأخبار كانت جيدة جداً، كنا نوقف تقدم القوات الأمريكية. كانت الروح المعنوية للقوات عالية في بغداد. وكانت القوات مصممة على حماية المدينة».

وقال عبد الرزاق: إنه عندما وصل الأمريكيون إلى بغداد واقتحموا المطار، بدأ الجنود في الهرب. وقد هرب نصف رجاله من الوحدة، أما النصف الثاني فقد اختبأ في مبان كانت قريبة من المطار. وأضاف عبد الرزاق:

«هرب كثيرون من اللواءات. وكان ذلك أمراً مزعجاً. الحرس الجمهوري لم يكن راغباً في القتال».

في يوم ٧ نيسان / إبريل تسلم أمره العسكري الأخير: واصلوا القتال ضد العدو. وكانت إجابته:

«نعم سنواصل».

وقال عبد الرزاق، الذي جمع جنوده بعد ذلك الأمر وطلب منهم أن يقرروا ما يفعلون:

«لم نكن مقتنعين؛ ولذلك لم نقاتل، وذهب الجميع إلى منازلهم».

وقف العقيد عبد الرزاق الذي كان محترماً ذات يوم، خمس ساعات تحت الشمس الحارقة، في انتظار تسلم الإعانة الرمزية التي بدأ الأمريكيون يوزعونها على كبار الضباط السابقين في كل أنحاء العراق، والبالغة ١٠٠ دولار لا أكثر. وقال الضباط الأمريكيون: إن صغار الضباط والجنود سيتسلمون إعاناتهم خلال الأسابيع القادمة.

قال عبد الرزاق: إنه يخشى الانتقام، ليس فقط من الأمريكيين بل من العراقيين كذلك، وذلك لدوره في الجيش. وقد غطى عنوان مسكنه وركب قفلين على بابه. وقال والد الولدين التوأم والبنتين، وهو يمسح العرق من وجهه:

«إنني أشعر بالعار والمهانة. كضابط لا أستطيع أن أكشف ما شعرت به للجنود. وحتى الآن لا أستطيع أن أصف ذلك الشعور، كان شعوراً مؤلماً»[1].

أما نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة فقد كان قصي صدام حسين، الذي كان حديث عهد بالخبرة العسكرية، فقد امتازت قراراته أثناء الحرب بالتخبط الشديد، وإرهاق القوات في التنقل هنا وهناك، مما جعل القوات العراقية هدفاً سهلاً للغزاة الأمريكيين، كما أكد ذلك بعض ضباط الحرس الجمهوري، الذي قال أحدهم قوله بأسى: «لم نكن نستقر في موقع ونتمترس فيه إلا وتأتينا الأوامر بالتحرك لموقع آخر، مما جعلنا هدفاً سهلاً للقوات الأمريكية.

وأذكر أنني في لحظة واحدة فقدت أربعة وعشرين دبابة، من أفضل الدبابات عندي مع أطقمها، بسبب إصرار القائد الأعلى على أن أتحرك بقواتي وأجعلها هدفاً مكشوفاً للقوات الأمريكية، فوقفت أبكي مثل الأطفال من هول ما رأيت، كما أنّ كل اتصالاتنا انقطعت مع قيادتنا، ولم نكن نعرف أي هدف نضرب، أو إلى أي مكان نتجه».

ومن مؤشرات الإنهاك والتوتر الشديد الذي بدا على الجنود العراقيين في الأيام الأخيرة للحرب، نظراً لعدم توقفهم عن الانتقال من مكان إلى آخر، وفقدانهم القدرة على النوم، بينما ثمة من يشير إلى أنّ كل وسائل الاتصال بين المقاتلين في الجبهات وقيادة الأركان العليا قد توقفت عن العمل كلياً، قبل أسبوع من سقوط بغداد.

ويبدو أنّ قصيّ، الذي تم تعيينه على رأس الجيش، اتخذ بالفعل «قرارات مصيرية» بإرسال الحرس الجمهوري بعيداً عن العاصمة، إلى مناطق قرب كربلاء وغرب الفرات، ظناً منه أنّ القوات الأمريكية ستأتي من هناك، وعندما اكتشف خطأه، أمر الجنود بالعودة إلى بغداد، فكان الوقت متأخراً جداً.

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط: ٢١حزيران / يوليو ٢٠٠٣

وفي هذا السياق تقول الرواية إنّ صدام وقصي أمرا قيادة الأركان في الثالث من نيسان / إبريل، أي قبل سقوط بغداد بستة أيام، إبلاغ الجنود العراقيين أنّ الأمريكيين نقلوا رسالة إلى العراقيين، مفادها أنّهم سوف يضربون بغداد بالأسلحة النووية. وحسب ما يفيد قيادي عسكري عراقي بارز، فإنّ القادة العسكريين رفضوا في البداية الامتثال لهذا الأمر، وحاولوا إقناع صدام وابنه بأنّ مثل هذا الإعلان سوف يحبط معنويات الجنود، لكن قصي الذي ظل طوال الوقت بملابسه المدنية مرتدياً البدلة وربطة العنق، أصرّ على إصدار بيان بهذا الخصوص، مما أثار حنق العسكريين.

يقول وزير الدفاع العراقي سلطان هاشم أحمد وهو يبكي بعد سقوط بغداد وبعد استسلامه للقوات الأمريكية: «قصي صدام حسين دمر الجيش وعبد حمود سكرتير صدام الخاص دمر الدولة».

وحسب الرواية؛ فقد حدث هذا قبل ستة أيام من سقوط بغداد، بينما كان القتال لا يزال مستعراً بعيداً عنها، وكان هذا آخر اجتماع للقيادة العسكرية، التي تفرّق شملها بالفعل، مساء الرابع من نيسان / إبريل، وفي الخامس منه شنت الدبابات الأمريكية هجمات سريعة ومتكررة على بعض أحياء بغداد، بينما كان وزير الإعلام العراقي الصحاف يعلن عبر مؤتمراته الصحفية بأنّ القوات العراقية سوف تسحق (العلوج)، في الوقت الذي كان فيه القادة قد يئسوا وتفرقوا إلى بيوتهم.

وبينما هرب كثير من كبار القادة مما بدا أمراً مزعجاً لزملائهم ومرؤوسيهم؛ اتضحت عدم رغبة الحرس الجمهوري في القتال، وبعد مشاورات عدد من تبقى من القادة مع قواتهم تم التوافق على خيار العودة إلى المنازل، وسط مشاعر «العار والمهانة» التي سادت الموقف.

لم تكن هناك خطة محددة للدفاع عن بغداد أو العراق بشكل عام، سوى بعض الخنادق التي حفرت في المدينة، لم تكن هناك أية مظاهر تدلّ على أنّ المدينة

تترقب المعركة، سوى تسريب إشاعات بأن هناك «سبعة ملايين مسلح سوف يأكلون الأمريكيين ويسحقونهم»، حينما يقتربون من أبواب المدينة، وليس هناك أي حشد إعلامي، مثل الذي سبق «أم المعارك» في سنة ١٩٩١.

إنّ الجبهة الداخلية للعراق كانت «ممزّقة للغاية، ولا يمكن لأي قائد أن يخوض معركة خارجية وجبهته الداخلية ممزقة وكارهة له ولنظامه، وهذا ما لم يدركه صدام، فقد بلغت كراهية شعبه له مبلغاً لا يوصف، تمثل في التاسع من نيسان / إبريل حينما أُسقط التمثال الأول في ساحة الفردوس، فقد تبعه تدمير شامل لكل تماثيله، بل وتصفية لرجال نظامه بلغت أشكالاً دموية شنيعة، بسبب ما ارتكبه بحق شعبه».

فالفرقة ٥١ التي كانت مكلفة بالدفاع عن البصرة انسحبت من المدينة في اليوم الرابع للقتال، ومباشرة بعدما ظهر قائد الفرقة اللواء خالد الهاشمي على شاشة قناة «الجزيرة»، ليعلن نبأ عدم استسلام قواته. فقد كان قد أصدر أوامره لقواته بالانسحاب، في الوقت نفسه الذي كان البريطانيون يتفاوضون فيه مع زعماء العشائر وقادة باقي القوات غير النظامية، حتى أخليت لهم المدينة تماماً، ودخلها البريطانيون دون مقاومة، إلا من متطوعين عرب، خاضوا معهم معركة دامية قرب جامعة البصرة.

فرّ كثير من جنود الحرس الجمهوري العراقي، بعدما وجدوا أنفسهم هدفاً سهلاً للقوات الأمريكية. كانت الفرق الأربع المتحصنة حول بغداد، والتي يفترض أن تضم كل منها عشرة آلاف جندي، وهي بغداد والمدينة وحمورابي ونبوخذ نصر، قد شكلت خطين دفاعيين جنوبي العاصمة، على شكل نصف قوس، كان الخط الأول (الخارجي) متحصناً بشكل جيد من كربلاء إلى الكوت، ولمسافة طولها ١٦٠ كيلواً متراً، أما الخط الخلفي (الداخلي) فطوله تقريباً ٤٨ كيلومتراً، ويمتد من اليوسفية وحتى الصويرة، غير أنّ عدد القوات المنتشرة في هذه المناطق كان غير معروف.

وبحسب الاستخبارات الأمريكية؛ فقد تم تقويض كافة هذه القوات، التي تقدر مصادر عسكرية أمريكية وخبراء متابعون عددها بما يتراوح بين ١٦ ألفاً و٢٤ ألف

جندي. وفي معظم الوقت كانت القوات الأمريكية تضرب هذه القوات من الجو، واستهدفت نصف الغارات الجوية، التي تقدر بحوالي ٢٨ ألف غارة الحرس الجمهوري.

في هذه الأثناء كانت القيادة الأمريكية قد قرّرت إنهاء معركة بغداد بأي ثمن، بعدما أصبحت صورتها سيئة أمام جنودها، وأمام الرأي العام الأمريكي والعالمي. فمن الناحية العسكرية قرّرت استخدام أسلحة جديدة، غير مسبوقة، في تدمير كافة أماكن تواجد القوات العراقية حول بغداد، منها قنابل صوتية لا تُدمر، ولكنها تحدث صوتاً عالياً، اتضح من خلال بعض التقارير أنها قنابل جديدة كهرو مغناطيسية، تصيب دائرة قطرية صغيرة وتسبب تعطيل الحواس الخمس وكافة أشكال الحياة، ومن ثم الوفاة السريعة لكل الموجودين في دائرتها.

وهناك شهادات طبية ميدانية عن كثير من القتلى العراقيين، الذين شوهدوا وقد تحوّلت أجسادهم إلى اللون الأزرق، ونزلت الدماء من أنوفهم وعيونهم وآذانهم، ولعل هذه هي آثار استخدام صواريخ «هل فاير»، التي اعترف وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد في جلسة عقدها الكونغرس الأمريكي في ١٤ أيار / مايو ٢٠٠٣ باستخدامها في الحرب ضد العراق.

هناك إفادات لقيادات عسكرية عربية منها ما يؤكد استخدام الأمريكيين لقنابل محرمة دولياً، لها خاصية القنابل النووية، غير أنّ تأثيرها يمتد إلى دائرة صغيرة قطرها لا يزيد عن كيلومتر واحد.

بينما أشارت مصادر أخرى إلى أنّ بعض القنابل التي ألقيت على قطاعات عسكرية كانت تؤدي إلى تسييل أجساد الجنود، بحيث لا يبقى إلا الهياكل العظمية، وهناك قنابل أخرى، كانت تؤدي إلى تحجر أجساد الجنود، أو الذين يتواجدون في دائرتها، وقد تعززت هذه الروايات بشهادات طبية.

الجنرال فرانكس يعترف بتقديم رشاوى لقادة عراقيين:

أكد الجنرال تومي فرانكس قائد الحملة العسكرية الأمريكية على العراق أن عدداً من كبار ضباط الجيش العراقي والذين كانوا يتولون قيادة القوات المسؤولة عن الدفاع عن عدد من المدن الأساسية قد تقاضوا رشاوى من الولايات المتحدة كي يمنعوا قواتهم من القتال ضد القوات الأمريكية الخاصة أثناء الحرب.

ونقلت صحيفة «اندبندنت» البريطانية عن فرانكس قوله: إن عملاء بالمخابرات والقوات الخاصة الأمريكية قاموا قبل فترة من اندلاع القتال بدفع مبالغ مالية لعدد من الضباط العراقيين الذين ارتأى القادة العسكريون الأمريكيون أنه من الأهمية بمكان أن يتم كسب تأييدهم لضمان تحقيق نصر عسكري سريع وبأقل عدد ممكن من الضحايا.

وأوضح فرانكس أن هؤلاء الضباط العراقيين اعترفوا بأنهم لم يعودوا يدينون بالولاء لصدام حسين بل للأمريكيين، ومن ثم فإنهم قرروا عدم الدفاع عن مواقعهم في مواجهة قوات التحالف التي تحركت صوب العراق قادمة من الكويت. ومضى فرانكس يقول: لقد تلقيت رسائل من جنرالات عراقيين قالوا فيها إننا نعمل معكم الآن.

وذكرت «اندبندنت» إنه لم يتضح من هم الضباط العراقيون الذين تقاضوا رشاوى أو عددهم أو قيمة ما تقاضوه من أموال، غير أنه من المرجح أن الولايات المتحدة كانت تركز على الضباط الذين يسيطرون على القوات الخاصة التابعة لصدام، وهي القوات التي كان من المتوقع لها أن تدافع عن العاصمة بغداد.

وقد صرح مسؤولون في وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاغون» بأنه قد ثبت أن رشوة الضباط العراقيين كانت أسلوباً فعالاً للغاية، حيث إنها ساعدت بالفعل على سقوط أعداد محدودة من الضحايا من الجنود الأمريكيين.

وقال مسؤول كبير «بالبنتاغون» أن تكلفة الصاروخ الواحد من طراز كروز تتراوح ما بين مليون و٢,٥ مليون دولار لذا فإن تقديم الرشاوى يحقق نفس الهدف

من إطلاق الصاروخ ولكنه يحققه بصورة غير دموية وأقل تكلفة. إلا أن فرانكس اعترف بأن بعض الوحدات العراقية قاتلت انطلاقاً من شعورها بالواجب والوطن ولم يغير قتالها شيئاً من نتائج الحرب. وتجيء اعترافات فرانكس لتكشف بعض ألغاز الحرب على العراق والسقوط المفاجئ لبغداد.

وهذا التأكيد الذي كشف النقاب عنه فاجو مراديان، المحرر بمجلة «ديفنس نيوز» لقيام كبار الضباط العراقيين في عدد من المواقع المهمة بتلقي رشاوى سيفسر السر في محدودية المقاومة في مواقع كان من المتوقع أن تصمد فيها القوات الأفضل تدريباً مثل الحرس الجمهوري[1].

شهادات من الحرب

فلسطيني يروي بعض صور الخيانة:

قال مقاتل فلسطيني من الاستشهاديين العرب وهو يشد على الجرح وتتهمر منه الدموع وهو يشهد بأم عينيه كيف سقطت بغداد وكيف نجا من الموت بأعجوبة في حين استشهد رفاقه أمام عينيه غدراً ملخصاً سقوط بغداد بكلمة واحدة إنها «الخيانة».

قال ذلك الاستشهادي عبد المجيد العزة:

فوجئنا بريبة عراقية تجاه المتطوعين العرب، ولم نُستدع إلا يوم ١ نيسان / إبريل ٢٠٠٣، ولم ترغب قيادة الجيش العراقي التي كانت ملغومة باتباع للخيانة ومن الرؤوس الكبار كانت تمثل الدور نفسه الذي مثلته مهزلة «ماكو أوامر» في حرب عام ١٩٤٨، والذي حدث أيضاً أن الدروع البشرية التي وصلت بغداد لحماية المنشآت العراقية من القصف كانت ملغومة بعملاء (CIA) الذين أوصلوا المعلومات بالسر عن كل شيء، سواء كانت هذه من العرب أم من الأجانب، فقد دست أمريكا مجاميع من عملائها في هذه الدروع البشرية.

(١) صحيفة البيان الإماراتية ٢٥ أيار / مايو ٢٠٠٣.

والذي حدث أيضاً أن بعض عملاء (CIA) قد تسللوا مع الدروع البشرية وكانوا على اتصال مع مجموعة من الفتيات العراقيات اللواتي دربن على العمل الاستخباري عن طريق الاتصال بأجهزة اتصال «ثريا»، وكانت أعمارهن تتراوح بين ١٧- ١٨سنة، وقد جندن للعمل من قبل الأمريكان، وقد اختاروا فتيات لأن المجتمع لا يشدد على تفتيش النساء، والغرض كان التمويه، وكان الأمريكان يحددون أماكن تواجد المتطوعين العرب، ويتم الاتصال وفتح الخط مع «القمر الصناعي» الذي يحدد إحداثيات المكان ويعني الهدف حيث تأتي الطائرات فتصيب الهدف المعين بدقة بعد إعطاء المعلومات عنه.

- وهل كنت تتصور وجود تلك الخيانة على هذه الصورة من قبل؟

كنا نسمع عن حالات تكتشف دون الإعلان عنها، وكنا قد أعددنا قوائم بأسماء الموثوق في ولائهم للدخول في المعركة، وأرسلنا القوائم للفرق الحزبية، وبدأنا التدريب قبل الحرب بأسبوع. وحصلنا على السلاح. ولم نتمكن من استخدام ذخيرة حية، وكان بعض الضباط المؤتمرين بأوامر الخونة الكبار يقولون لنا لم يحن الوقت بعد، وكانوا يتحذرون منا كمتطوعين عرب، وبصراحة كنا تخيلنا أن أرضية المقاومة متينة وأن التشكيلات العراقية سواء كانت جيش القدس أو الجيش النظامي أو الحرس الجمهوري كفيلة بإنهاء المواجهة مع الأمريكان على الرغم مما سمعناه من اجتهادات وتحليلات، إلا أن المؤكد هو وجود «صفقة خيانة».اضطلع بها الكبار وأرغم الصغار على الخوض فيها، وكان هناك تراخٍ مقصود من البعض بسبب «الخيانة» وهناك حقيقة أن الإنذار الذي صدر من القيادة للفرق الحزبية بنسبة ٧٥٪ وهذا في أعلى نسب الاستنفار، ومعها يكون التراخي «خيانة واضحة» والمتطوعون العرب قاموا بواجباتهم، استلمنا السلاح ونزلنا إلى الشوارع مساء أول يوم لبدء الحرب ٢٠ آذار / مارس ٢٠٠٣، وحاولنا طمأنة الشعب وبث روح الحماس في صفوفهم، وكنا نتصل بزملائنا في الجنوب من الطلاب العرب والفلسطينيين، وظل ذلك مستمراً حتى اليوم العاشر للحرب، وكانت الأخبار مطمئنة حتى انقطعت الاتصالات الداخلية يوم ٣ نيسان / إبريل وانقطعت الأخبار.

■ وهل شعرت بقرب السقوط من خلال الأجواء التي كانت سائدة؟!.

أبداً حتى في تلك اللحظات الساخنة لم أتخيل، ولكن في اليوم الخامس عشر للحرب وصلت معلومات موثوقة بأن مجموعة من الدبابات الأمريكية توغلت داخل بغداد مساء ٣ نيسان / إبريل وفي منطقة القادسية وحتى مستشفى اليرموك من جهة المطار، وبمحاذاة الشوارع المؤدية إلى المطار، ووصلت في طريقها إلى مركز الاتصالات في ساحة النسور أطراف بغداد، والتفت من حولها الدبابات باتجاه الفلوجة دون أية مقاومة، وكانت نسبة المقاومة في التعبير العسكري ضعيفة جداً، وبالطبع صعقنا من هذا الخبر ولم نكن نصدق ما حدث لولا أن ناقل الخبر كان موثوقاً به إلى أقصى الحدود.

وكان رامز سعدي طهبوب الذي استشهد فيها والذي تربطه علاقة قرابة بزوجة الشهيد طارق أيوب مراسل الجزيرة الذي استشهد ديما طهبوب وتم نقل الأمر للفرق الحزبية والتي وزعت علينا استمارة «استشهادي» لتنفيذ عمليات استشهادية والتي تختلف عن استمارة مقاوم والتي وقعناها من قبل، وتم تجميع المتطوعين في ملعب الشعب الدولي وأثناء التجمع تم رصد المكان عن طريق العملاء الخونة، فانقضت علينا ٢٥ صاروخاً ليلة ٣ نيسان / إبريل استشهد خلالها عشرات المتطوعين، وتم نقل الأحياء منهم إلى نادي العلوية على عجل، وهناك في نادي العلوية كان العملاء بالمرصاد وتم ضربهم على أبواب النادي واستشهد العشرات منهم أيضاً. وتم نقل من بقي منهم إلى معسكر الرشيد وكانت الفاجعة أشد أن يتعرض المعسكر ذاته إلى القصف وسقط في تلك الليلة مئات الشهداء العرب بفعل «الخونة» دون الدخول في أية معركة حقيقية، وهذه القصة رواها أيضاً الشهيد رامز سعدي طهبوب قبل أن يوقع على استمارة «استشهادي» ويذهب إلى منطقة نفق الشرطة مع من بقي من المتطوعين، وسادت روح الإحباط في صفوف المقاتلين وهم لا يعرفون المصير، وماذا يعملون وترك بعضهم السلاح في تلك اللحظة؟.

وجاءت أعداد من الحافلات وأمرت الأحياء من الفدائيين العرب بالصعود إليها، وتوجهت تلك الحافلات إلى غابة للنخيل غرب بغداد، وكان أغلب الفدائيين الاستشهاديين هم من سوريا ولبنان وفلسطين، وهناك حدث اشتباك مع قوة أمريكية كانت تحاول الإنزال في تلك المنطقة، وقد ردوا على أعقابهم وتكبدوا خسائر فادحة جداً، وقرر المتطوعون تنظيم أنفسهم بأنفسهم بعد أن انقطع الاتصال بقيادتهم، واتجهوا إلى نفق الشرطة وتحصنوا فيه حتى يوم ٩نيسان / إبريل حين داهمت قوات الاحتلال المنطقة، ورفض المتطوعون الاستشهاديون العرب إخلاءها واستشهدوا جميعاً بعد معركة غير متكافئة كانت من أشرس المعارك وأشرفها خلال الحرب، حدث ذلك رغم ورود معلومات مؤكدة للمتطوعين بسقوط بغداد.

- وأين كان الحرس الجمهوري الذي كان يعتبر رقماً صعباً في المعادلة العسكرية؟؟

الحرس الجمهوري لم يكن فاعلاً باستثناء فرقة «النداء» التي تولت حراسة المطار والدفاع عنه وعن القصر الجمهوري، ولم يكن بعد قد وصل إليها أمر الانسحاب نتيجة قطع الاتصالات، وتلك الفرقة هي التي نفذت معركة المطار بالتعاون مع الاستشهاديين العرب.

- وما معلوماتك عن معركة (المطار) حينما دخلت القوات الأمريكية؟

تم استدعاء قوات ضخمة من القوات التي حاصرت المطار، ولم يتم تدخل عسكري مباشر بالشكل التقليدي، ولكن فوجئ الأمريكان بأعداد كبيرة من الكلاب البوليسية المغطاة بمسحوق أبيض هو الدقيق في حقيقة الأمر، وهذه الكلاب اندفعت باتجاه القوات الأمريكية بشكل سريع، ويبدو كانت مدربة تدريباً عالياً وهي تنشر المسحوق الأبيض في كل مكان، فهرب الأمريكان وأصابهم ذعر رهيب، فصدرت الأوامر للأمريكان بالانسحاب وبالدخول إلى ناقلات الجنود وارتداء

ملابس الحرب الكيماوية، اعتقاداً بأن المسحوق يحتوي على جراثيم ومواد مسممة، وهنا وصل مئات الاستشهاديين على الدراجات النارية محملة بأطنان من المتفجرات وانقض الاستشهاديون ودمروا الآليات الأمريكية بمن فيها، وفي الوقت نفسه قام المقاتلون الاستشهاديون بتبادل إطلاق النار مع قوة أمريكية حاولت القيام بإنزال لدعم قواتهم في المطار فدمرت وأبيدت، وتكبدت قوات الاحتلال خسائر فادحة جداً، وبعدها دخل الاستشهاديون وقطعوا رؤوس الأمريكان ونقلوها إلى الأعظمية في ساحة عنتر وقرب المقابر الملكية، وتجمع الناس حول هذا المشهد، وانتشر الخبر في جميع أنحاء العراق، وارتفعت الروح المعنوية عقب تلك المعركة، فتعرضت بغداد لأعنف هجوم شهدته في تاريخها، ويؤكد خبراء بأن السلاح المستعمل ضد بغداد يماثل قوة السلاح النووي التكتيكي، وقد تزايدت القوات الأمريكية التي ترك لها الباب مفتوحاً دون مقاومة بسبب خيانة الكبار واتفاقهم مع الأمريكان لتسليم بغداد على طبق من ذهب[1].

«جمال» جزائري مقيم في ضاحية «سانت إتيان» بباريس، عاد إلى أسرته قادماً من بغداد الذي ذهب إليها متطوعاً، كان يعمل مع أخيه في متجر خاص بهما، وحين بدأت تلوح وجه الحرب الأمريكية على العراق قرر التطوع لمساعدة إخوانه كما يقول.

في البداية رفض الكلام معنا، ولكن مع إلحاحنا عليه قبل ـ مشترطاً علينا ـ ألا ينشر اسمه كاملاً، قال: «ذهبت إلى بغداد قبل أسبوعين من بداية الحرب، كان واجباً عليّ أن أساعد إخواني ضد التهديد الأمريكي الصهيوني، تدربنا على حمل السلاح، بسرعة خيالية.. كنا نتدرب تسع ساعات يومياً، في المكان الذي كنت فيه وجدت العديد من العرب، من جنسيات كثيرة، وكانت مهمتنا الأولى عدم الابتعاد عن بعضنا، وأن نتوزع على مناطق معينة في بغداد». سألناه هل كان موجوداً يوم

(١) صحيفة الرياض العدد: ١٢٨٤٧، الأحد ٢٦ جماد الثانية ١٤٢٤.

استولى الأمريكيون على المطار؟ فرد ساخراً: «لا تصدق كلام الصحف، لم يستولوا على المطار إلا حين انسحب منه الجنود.. لقد كنا ضمن فرقة تغطي جنوداً عراقيين، وكان هدفنا هو منع أي تقدم نحو المطار». قلت له: «لكنهم استولوا على المطار حقاً». قال غاضباً: «حين انسحبنا.. نعم!»[1].

لماذا حدث الانسحاب؟

تقارير وزارة الدفاع الأمريكية تحدثت عن «صفقة».. ربما ذهب ظن أغلبية المحللين إلى أنها كانت مع الرئيس العراقي صدام حسين، ولكن.. كيف يمكن إبرام صفقة مع جيش ينتصر في المعركة؟!.

الجواب أن الصفقة لم تكن مع الرئيس العراقي إنما مع ابن عمه «ماهر سفيان التكريتي» الذي لم يستجب لعدة أوامر أعطيت له منها قصف بغداد بالصواريخ لمنع سقوطها، وربما أهمها نشر الفيلق الثالث والرابع على مشارف المطار، وتدمير الجسور المؤدية منه وإليه.

كانت تلك أبرز المراحل التي من خلالها كانت الصفقة تسير إلى الأفضل. أمريكا كانت تخشى تدمير الجسور، وبالتالي عدم تدميرها بمثابة رغبة لجنود أرادوا أن ينتصروا لوحدهم وخارج تفاصيل الحرب، على نظام صدام حسين.. كيف؟.

تأمين حياتهم وحياة أسرهم عبر نقلهم إلى مناطق أخرى، خارج العراق، والتعهد بأن يكون لهم دور عسكري في العراق المحررة، وعدم التعرض إلى منازلهم وممتلكاتهم الخاصة إلى حين الرجوع إليها. هذا ما يؤكده أن منازل ضباط في الحرس الجمهوري لم يمسسها القصف، وأن الجنود تواجدوا (ليس صدفة) في شارع الروضة الذي يضم منازل العسكريين الهاربين من المعركة.

---

(١) من موقع: http://arabgate.info

الإثنين ٧/٤/ ٢٠٠٣م، انفجار مهول هز أحد الأحياء البغدادية، كان الهدف: مطعم قيل إن الرئيس العراقي ونجليه كانا فيه.. كانت الصورة المفجعة لما تبقى من المطعم، وتقارير المخابرات تتسرب إلى الجيش العراقي قائلين له: «صدام حسين قتل، فلن يكون هنالك داع لمقاومتكم».. النتيجة: حادثة المطعم الذي يعرف المقربون من صدام أنه كان يرتاد مخبأ كان مبنياً تحته، صدقوها مقتنعين برواية «الموت» ومن هنا كانت عملية الهروب أكثر حدة من ذي قبل.

ابن عم الرئيس أدى دوراً كبيراً في تنسيق العملية الأخطر: عدم المقاومة والسماح للجيش الأمريكي بالدخول إلى بغداد. الثمن؟ ضمانات حقيقية، الخروج من العراق!. الأمريكيون بعد الحرب اعترفوا أنهم هزموا الجيش العراقي بالحيلة، وأن النتيجة كانت أهم من كل الحسابات الأخرى. هذا يؤكد أن الحيلة ما هي إلا تسريب معلومات خاطئة عن اغتيال الرئيس العراقي مع نجليه في حادثة المطعم.. لهذا بالنسبة لهؤلاء الذين خاضوا معارك كثيرة، لم يكن هنالك سبب لمواصلة المقاومة طالما القائد الأعلى قد مات!.

حادثة خطيرة وقعت لم تكن أكثر من خطة لتهريب هؤلاء إلى جهة «آمنة».. القصف الذي تعرض له فندق فلسطين كان بمثابة الحيلة الأمريكية الأخرى، كي تشد أنظار العالم إلى مجزرة رهيبة، لكن لأجل ماذا؟ لأجل عملية إنزال وشحن في الوقت نفسه في مطار صدام حسين الذي بثت القنوات التلفزيونية صوراً عن وصول المارينز إليه حقاً، مكذبة كل الدفاعات التي كان يقوم بها محمد سعيد الصحاف ساعات قبل سقوط بغداد. كانت عملية فندق فلسطين محضرة، بدقة متناهية. قناة «فرانس دو» بثت صورة القصف.. حيث استدارت دبابة أمريكية نحو الفندق، وانتظرت بضعة ثوان قبل أن تطلق النار نحو المصورين الذين كانوا على سطح الفندق. الإصابات كانت مهولة، ولم يتوقف ذلك على القصف. كانت ثمة أوامر أخرى صارمة من الأمريكيين كي يحدوا من تحرك الصحفيين خارج الفندق. كل الصحافيين والمصورين كانوا في سجن أمريكي حقيقي. ليس هذا فقط، بل

حدث أن حاصر الجنود مقرات لبعض التلفزيونات الدولية، والعربية. كانت العملية منسقة مع الطيران الذي لم يتوقف ذلك اليوم من القصف على مقرية من الفندق. الصحافيون وجدوا أنفسهم غير قادرين على التحرك. الصدمة والحرب التي وجهت نحوهم.. لماذا؟ لأنه كان ثمة ما يحدث في الجهة الأخرى. «جمال» الذي قال: إن سقوط المطار كان نتيجة هرب الحرس الجمهوري وليس العكس.

قال لنا أيضا: «كنا خمسة، أنا وأخ من سوريا وثلاثة مصريين، ولم ندر ما الذي يجري، فجأة وجدنا أنفسنا لوحدنا.. رأينا بعض العراقيين الذين بقوا، وهم يغيرون ثيابهم، يلبسون ثياباً عربية، ويهربون تاركين أسلحتهم.. لم نكن نعرف ماذا يجري، ولا ماذا كان علينا فعله.. لكننا ركضنا بدورنا بعيداً». يقول أيضاً: «كنا نجري، ولكن الذي لا يمكن نسيانه هو أزيز تلك الطائرة الكبيرة التي حطت في المطار، كان ثمة من يخرج منها ومن يدخل إليها.. رأينا النساء والأطفال يركبون على متن الطائرة، ورأينا بعض الضباط العراقيين بلباسهم العسكري يدخلون على متن الطائرة» هذا الكلام جاء في تقرير بثته «فوكس نيوز» لكن لسبب غامض توقف المذيع عن مواصلة تقريره من بغداد!.

جثة المصور البلغاري:

حادثة أخرى، لا تقل أهمية وهي العثور على جثة مصور بلغاري قريبة من مطار صدام الدولي، كيف وصل المصور إلى ذلك المكان؟ الجنود الأمريكيون قالوا. إنه راح ضحية القصف المكثف على المطار.. ولكن أي قصف؟ كان القصف موجهاً إلى المنطقة المحاذية لفندق فلسطين. الإجابة الوحيدة هي أن المصور لم يكن موجوداً في الفندق لحظة بداية القصف.. وأنه كان يصور العاصمة، وبالذات منطقة المطار.. عثر على كاميرا المصور خالية من أي شريط للتصوير! كيف يغامر صحفي بحياته بكاميرا خالية من أي شريط؟ لا أحد أراد الرد على هذا السؤال.. لكن الإجابة الواضحة قالها زملاء الضحية الذين أكدوا أن زميلهم محترف، وأنه يحمل معه دائماً أشرطة تصوير احتياطية، ولا يمكن أبداً استيعاب فكرة ما قيل إنه

راح ضحية الغارة. شيء آخر، وهو أن الذين رأوا جثة المصور لاحظوا آثار طعنات.. هذا يدل على أن ثمة من اكتشف أمره، فقتله.. مساحة المطار كانت مفتوحة لطائرتين أمريكيتين حطتا فيه، باعتراف من البنتاغون نفسه، وهذا يؤكد أن الأمريكيين ظلوا يحمون جوانب المطار من أي طارئ مهما كان نوعه، بمعنى أن المصور كان ضحية الأمريكيين وليس العراقيين الذين فروا جماعات.

ثانياً، إن الكاميرا بلا أدنى شك لم تكن خالية، بل كان فيها شيء خطير، بدليل أن النهاية كانت القتل، أي محو أي حقيقة يمكن العثور عليها.. خاصة صور قيادات الجيش العراقي الذين قال أكثر من شاهد عيان إنهم هربوا مع عائلاتهم على متن الطائرتين اللتين حطتا، والتي كانت تفصل بينهما ساعة من الزمن.. نهاية أزمة فندق فلسطين كانت نهاية قصة أخرى. بغداد.. التي سقطت «طواعية»، لا شيء يدل على وجود مقاوم واحد فيها يمكنه الدفاع عنها، الكل هرب، وذاب خلف الضباب.

الصدمة ثم الفرحة!

الأمريكيون يبحثون بعد سقوط بغداد عن صدام حسين، للإعلان بطريقة مباشرة أن صدام حسين لم يمت.. وأن البحث عنه ما زال جارياً. محمد سعيد الصحاف اختفى صباح سقوط بغداد.. والذين كانوا يشكلون ركيزة النظام العراقي لم يعد لهم وجود. ثمة اعتقاد له مصادره يؤكد أن الذين يجري البحث عنهم سيقعون تحت قبضة الأمريكيين قريباً بمن فيهم الرئيس العراقي السابق نفسه، لأن الذين خانوا بغداد لن يتورعوا عن خيانة رئيسها.. ولن يتورعوا عن التبرؤ منه يوم يأتي وقت المحاكمة. كأن يقولوا للأمريكيين: أعطيناكم العراق لأجل ضمان حياتنا! سيكون الأمر بشعاً يومها، لأن تاريخ العراق الجديد أصبح متورطاً بالخيانة التي سمحت للاحتلال أن يكون تحريرياً. سمحت للديموقراطية أن تأتي على متن القنابل العنقودية، واليورانيوم المنضب والغير منضب. تناقض قد يفهمه أحدنا ذات يوم، لكن الآن.. لا أحد يفهم الحقيقة الأخرى التي ربما، سيراها الناس ذات يوم

على شكل شهادات من أصحابها، الذين سينعمون بالدفء الأمريكي قليلاً، قبل أن يكتشفوا اللعبة المرة التي لعبوها، ليس ضد رئيس ديكتاتوري (على الأقل من وجهة نظرهم)، بل ضد شعب صدمه السقوط الرهيب والسهل لعاصمة كانت ذات يوم عاصمة للتاريخ كله!.

قصة سقوط بغداد هي القصة التي سيسردها هذا الجيل للجيل القادم. ليس عن طاغوت أرهب شعبه، وحكمه بالحديد والنار فقط، بل عن أولئك الذين باعوا الشعب كله في بورصة الاحتلال، كي يستفيدوا هم من «غنائم» الحرية. ومن «أمجاد» العراق الجديد الذي لا يجد فيه أكثر من عشرين مليون عراقي خبزهم اليومي.

سيجلس العراقيون ذات يوم يحكون لأبنائهم كيف أن حفنة من الأشخاص استطاعوا بيع دولة.. فباعوا بأسرها شعباً كُتب عليه أن يعيش أكثر من أربعة وعشرين عاماً في ظل حكمٍ جائرٍ، وأعدمت كل حقوقه البسيطة.. مقابل حقائب مالية ممزوجة بدم أمة مكتوب عليها المأساة إلى ما لا نهاية..

وبعد سقوط بغداد جاء في الأخبار: كشفت صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية عن خطط لعقد اتفاقات عسكرية أمريكية طويلة الأمد مع الحكومة الجديدة في العراق، وذلك وصولاً إلى إقامة قواعد عسكرية أمريكية في الأراضي العراقية، ونقلت الصحيفة عن مسؤولين أمريكيين أن واشنطن تنوي الاحتفاظ بأربع قواعد عسكرية في العراق لاستخدامها في المستقبل: الأولى في مطار بغداد الدولي، والثانية في تليل قرب الناصرية، والثالثة في مكان معزول في صحراء غرب العراق تسمى H-1 بمحاذاة خط أنابيب النفط بين العراق والأردن، والرابعة في باشور شمال العراق، وأن القوات الأمريكية تستخدم بالفعل هذه القواعد حالياً، وتخطط للبقاء فيها لاستخدامها في أي أزمات قد تحدث في المستقبل.

وكانت الولايات المتحدة قد كشفت للمرة الأولى عن خططها لوجود طويل الأمد في العراق، وقال بول وولفويتز، مساعد وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد والرجل الثاني في البنتاغون: إنه يرى إمكانية إنشاء قواعد عسكرية في العراق

الذي سيصبح بلداً خليجياً صديقاً جديداً لأمريكا، وأوضح قائلاً: «الحقيقة الأساسية هي أن إزاحة هذا النظام ستمنح الولايات المتحدة حرية أكثر للحركة في الخليج»، وبالطبع لسنا بحاجة لمعرفة دوافع وزير الحرب رامسفيلد الذي نفى صحة الخبر فيما بعد؛ فالأمر قد أوضحوه سابقاً[1].

والآن، بعدما تم الغزو الأمريكي ـ البريطاني للعراق نتساءل: ما هي الوسائل القانونية لإعادة إحياء دور الأمم المتحدة في المحافظة على السلم والأمن الدوليين؟. ولكن، قبل ذلك، لنتمعن في الذرائع التي أعلنتها الولايات المتحدة الأمريكية لعدوانها على العراق:

١ـ أنّ العراق يهدد السلم والأمن الدوليين بامتلاكه أسلحة دمار شامل، وقد لاحظنا سابقاً أنّ أمر حفظ السلم هو من الاختصاص المانع لمجلس الأمن، إذ يمتلك وحده سلطة استخدام القوة من جانبه تحديداً.

٢ـ أنّ استخدام القوة ضد العراق يأتي من قبيل صيانة الذات أو حق الدفاع الشرعي، مع العلم أنّ المادة «٥١» من الميثاق تتطلب لقيام الحق في الدفاع الشرعي، وقوع هجوم مسلح أو التعرض لهذا الهجوم أو كونه وشيكاً مؤكداً. كما أنّ حق الدفاع الشرعي يمثل استثناء جوهرياً على مبدأ حظر استخدام القوة في العلاقات الدولية، هذا الاستثناء يجب عدم التوسع في تفسيره أو استخدامه، بل يتعين أن يتحدد ببدء العدوان المسلح، ولا يسمح بأي عمل عسكري يتجاوز ما هو ضروري لرده، كما أنّ هذا الحق يجب أن ينتهي باتخاذ مجلس الأمن التدابير اللازمة والتي يرى ضرورتها.

٣ـ الاستناد إلى فكرة «الإرهاب الدولي»، وكون العراق راعياً للإرهاب ومصدراً له. هذه الحجة لا يمكن التعويل عليها أو تصديقها كمبرر لاستخدام القوة الأمريكية ـ البريطانية، خاصة بعد صدور إعلان الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٥٣/٥٠ بتاريخ ٩ كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٤م المتعلق بالتدابير اللازمة

(١) بعد أن ابتلعت أمريكا العراق، هل تستطيع هضمه، خالد أبو الفتوح، مجلة البيان، العدد: ١٨٨، ربيع الآخر ٢٠٠٣.

والداعية إلى القضاء على الإرهاب الدولي، والتزام المجتمع الدولي بالقضاء على الإرهاب، وتأكيد هذا الإعلان بمناسبة مرور خمسين عاماً على إنشاء الأمم المتحدة في العام ١٩٩٥م، وبعد أحداث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر٢٠٠١م.

أما الحديث عن جرائم الحرب التي ارتكبتها قوات الغزو والاحتلال فإنه يستند إلى أنّ القانون الإنساني الدولي مثله مثل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، مرجع دولي هام لا يميز بين العرق والقومية والدين، ويجب علينا إبرازه في كافة المحافل رغم صعوبات الوضع الميداني والسياسي وضعف أنظمة المحاسبة.

فقد استعملت الولايات المتحدة ـ ٨٠٠ ـ طن من ذخائر تحتوي على اليورانيوم المنضب خلال الحرب الأولى على العراق يصعب السيطرة عليها في حقل المعركة بشكل قانوني وذلك بسبب انتشاره في الهواء وتلويثه للجو، كما يبقى فعالاً لمدة طويلة (قدرت بـ ٦٠٠٠ سنة) بعد انتهاء الحرب، فهو مادة لا إنسانية تسبب الموت والأمراض الخطيرة للمدنيين والعسكريين، كما تسبب العاهات وأمراض الولادة لأجيال متعددة.

(في تقرير صدر في أيلول / سبتمبر من العام ٢٠٠٢م متضمناً إحصاءات، هنالك ما يشير إلى أنّ مائة وستين ألفاً من الذين شاركوا في حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١م هم معاقون، وأن ثمانية آلاف توفوا من «أعراض حرب الخليج»).

وفضلاً عن هذه المادة الخطرة استخدمت في الحرب الأخيرة قنابل غازية وعنقودية وانشطارية تزن بعضها عشرة أطنان، ولا يعلم مدى تأثيرها وأضرارها وما تتضمنه من محتويات بيولوجية أو كيماوية أو غير ذلك مما لم يعلم أو لم يعلن عنه. وهي جميعها تؤدي إلى مخاطر جسيمة لا داعي لها منتهكة بذلك جميع القيم الإنسانية، ولا يستطيع أحد أن يجزم بأن مثل هذه الأسلحة موجهة ضد عسكريين؛ لأنها تنتشر مع الرياح وتصيب المدنيين، وهي خرق فاضح يشكل إبادة جماعية للمدنيين يخالف ما تنص عليه معاهدة جنيف.

وهكذا فإنّ «محرري» العراق من الديكتاتورية أغرقوه ـ مجدداً ـ بالنفايات السامة الخطرة، التي ينتشر ركامها في أرجاء العراق. وبدلاً من تحذير المواطنين من مغبة الاقتراب منها، وإزالتها، يواصلون تضليلهم للرأي العام العالمي، ويكذبون عليه، بزعمهم بأنّ ذخيرة اليورانيوم المنضب لا علاقة لها بالأضرار الصحية والبيئية التي انتشرت عقب استخدامها هناك، كي لا يعترفوا بارتكابهم لجريمة حرب باستخدامهم لسلاح فتاك، مشعٍّ وسامٍّ. وكي لا يتحملوا مسؤولية تنظيف المنطقة من بقاياه، إلى جانب معالجة المرضى ورعايتهم، ودفع تعويضات لضحاياه.

وبخصوص حماية المدنيين فمن المعروف أنّ هناك ملحقاً خاصاً باتفاقية جنيف ينص على حماية أمن المدنيين، يعتبر من لا يفعل ذلك مجرم حرب. وما فعلته أمريكا في حربها الظالمة غير الشرعية ضد العراق يعد انتهاكاً سافرًا لهذه القوانين، فهي مارست أبشع أنواع القتل والفتك بالمدنيين بضربهم بقنابل عنقودية.

كما أنّ المعاملة القاسية التي يلقاها الأسرى، بما فيهم الأسرى العرب، والرفض الأمريكي لإعطائهم حقوقهم القانونية الدولية حسب ما نصت عليه اتفاقية جنيف الثالثة لأسرى الحرب عام ١٩٤٩م (المواد من ٤ - ٢٠)، أمر غير مقبول. بل إن إصرار الولايات المتحدة على عدم اعتبار هؤلاء المقاتلين أسرى حرب قد يزيد من تورط الحكومة الأمريكية. إذ إن هؤلاء المقاتلين إما أن يكونوا أسرى حرب أو أن يكونوا مختطفين، وأحسب أن الولايات المتحدة غير مستعدة لقبول هذا الأخير.

ويبقى السؤال الأخير عن هذا «النموذج الديموقراطي» التي أعلنت الإدارة الأمريكية أنها ستقيمه في العراق ثم تقوم بتصديره إلى باقي الدول العربية، فمنذ متى كانت الديموقراطية يتم فرضها بالقنابل وعلى جثث الشعوب؟ ومنذ متى كانت الولايات المتحدة حريصة على بناء الديموقراطية في العالم العربي؟ وكيف سيتم بناء الديموقراطية في العراق وهو تحت حكم الجنرالات الأمريكيين؟ وهل سيختلف «النموذج» الأمريكي هنا عن النموذج الذي تم بناؤه في أفغانستان، أم أنّ الشعب العراقي سيُجبر، تحت حكم الجنرال غارنر، ومن بعده بول بريمر على «الاستمتاع»

بديموقراطية كتلك التي «يتمتع» بها الشعب الفلسطيني وهو في أسر الجنرال شارون؟. أسئلة تستحق أن نناقشها طويلاً، وأن يطرح الجميع رؤاهم حولها.

الواضح أنّ الشعب العراقي لم يقبل تماماً تلك الأطروحة الأمريكية التي تقول: إنّ الولايات المتحدة سوف تقوم بإقامة الديموقراطية في العراق؛ لأنّ تاريخها ملتبس في هذا المجال على أحسن التقديرات، فمن بين ١٨محاولة لتغيير نظم الحكم بالقوة المسلحة، لم تنجح أمريكا في إقامة نظام ديموقراطي إلا في خمس فقط من الحالات هي على وجه الحصر: ألمانيا واليابان وإيطاليا وبنما وغرينادا. وفي غير ذلك فإن الولايات المتحدة لم تنشئ إلا أشكالاً مختلفة من العملاء والحكومات والسلطات الديكتاتورية، بالإضافة إلى مساندتها لقائمة طويلة أخرى من هذه النوعية في أماكن متعددة من العالم.

وهكذا، ليس في القوانين الدولية ما يجيز مثل هذه الحرب الظالمة، حتى لو توفرت لها بعض المبررات. ثم إنّ هذه الحرب لا تزال خارج الشرعية الدولية، بل لا تزال قوة الاحتلال تستبعد دخول الشرعية الدولية عبر الأمم المتحدة على الخط. ولعلها ستسمح بدور للمنظمة الدولية، لكنها ستكبله بالشروط. والأكيد أنّ الإدارة الأمريكية تفضل إبقاء الوضع العراقي خارج القانون الدولي لتحافظ على حريتها في التصرف.

وفي ضوء هذه الاعتبارات تبدو الأمم المتحدة والتكتلات الإقليمية مدعوة إلى أدوار إنسانية من شأنها تجميل الاحتلال ومدّه بـ «شرعية» فعلية فوق قانونية. ولا شك في أنّ فشل المجتمع الدولي في إجازة «حرب شرعية» بتحالف دولي حقيقي، سيمكّن الولايات المتحدة من استبعاد أي تأثير للمجتمع الدولي في المراحل التالية من إستراتيجية «الحروب الوقائية»، لأنها ستأتي على شكل نتائج «طبيعية» للحملة على العراق.

وإزاء كل المخالفات القانونية، الموصوفة أعلاه، فاجأ الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان خلال الدورة التاسعة والخمسين للجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم

المتحدة المجتمعة في جنيف مؤخراً ـ التحالف الأمريكي ـ البريطاني بمطالبته البلدين بـ « تحمّل مسؤولياتهما كقوة احتلال» تجاه المدنيين في العراق، وباحترام معاهدات جنيف عن أسرى الحرب بدقة. إذ قال: « آمل من كل قلبي أن يكون التحالف قدوة وأن يعلن بوضوح عزمه على الالتزام بدقة بمعاهدات جنيف وقواعد لاهاي بشأن أسرى الحرب بدقة، وأن يتحمل مسؤولياته كقوة احتلال فيما يتعلق بالحفاظ على النظام العام والأمن وسلامة المدنيين».

وفيما يتعلق بالمرحلة المقبلة في عراق ما بعد الديكتاتورية أثارت التصريحات الصادرة عن مسؤولين في الإدارة الأمريكية جدلاً واسعاً في أوساط العاملين في مجال القانون الدولي، وبخاصة ما تضمنته من إبرام تعاقدات مع الشركات العالمية الكبرى لإعادة الإعمار بمبالغ مالية تتجاوز المليارات، وطفت على السطح تساؤلات عديدة أهمها: مدى مشروعية الاتفاقيات والتعاقدات الدولية التي تعقدها سلطات الاحتلال أو الحكومة العراقية المؤقتة في ظل وجود الحاكم العسكري الأمريكي، وكذلك نطاق التزام الحكومة العراقية الشرعية في المستقبل بالعمل بتلك المعاهدات أو تنفيذ التعاقدات.

إنّ الفترة الانتقالية هي فترة احتلال تنظمها قواعد قانون الحرب، فالعراق محتل من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا، وهذا الاحتلال تترتب عليه مسؤوليات هي المحافظة على المدنيين والمكان وإنهاء الاحتلال بأسرع ما يمكن حسب القواعد والمواثيق الدولية، لكنها قوى احتلال تكتسب مشروعيتها من القوة وليس من القانون بدليل رفض الأمم المتحدة ومجلس الأمن لقرار الحرب؛ لذلك نحن في مواجهة احتلال لا توجد له أي شرعية دولية يوشك أن يعتبر جريمة من جرائم القانون الدولي.

وهكذا، فقد أثار الاحتلال الأمريكي ـ البريطاني للعراق عدة تساؤلات بشأن الحريات الفردية وحقوق الإنسان وحق تقرير المصير للشعب العراقي، فما هي حالة هذه الحقوق في ظل غياب الشرعية الدولية؟.

ما يجري في العراق يتنافى ـ جملةً وتفصيلاً ـ مع حقوق الإنسان، سواء تعلق الأمر بالأسرى أو بالأطفال أو بسائر المواطنين العزل؛ فالشعب العراقي اليوم، ورغم تخلصه من سلطة مستبدة، يعاني تحت الاحتلال الأمريكي من مشاكل عديدة تبدأ بنقص المياه والكهرباء وتنتهي بانعدام الأمن والاستقرار.

الشعب العراقي من حقه أن يقرر مصيره ويختار النظام السياسي الذي يليق به بعيداً عن وصاية بول بريمر وغيره من ممثلي تجار الأسلحة والحروب. فكيف سيكون مستقبل حقوق الإنسان في ظل انعدام الشرعية الدولية؟ وكيف سيكون مستقبل حقوق الإنسان في ظل شلل - شبه تام - للأمم المتحدة ومنظمات دولية أخرى عديدة؟ أليس من حق أطفال العراق العيش في ظل السلام والحرية والاطمئنان؟.

يبدو أننا دخلنا مرحلة دقيقة جداً، مرحلة إعادة ترتيب الأوراق دولياً وإقليمياً، وربما إعادة ترتيب الأنظمة والدول والحدود؛ فالحرب ضد الإرهاب ستغيّر كثيراً من المفاهيم السائدة بين الأمم، تماماً كما غيّرت نهاية الحرب العالمية الثانية مفاهيم العلاقات والتوازنات بين الدول. ومن المؤكد أنّ الولايات المتحدة الأمريكية ليست بريئة من تضخيم حالة التسيّب التي تكتنف السياسة العالمية، ولكنّ المسؤولية لا تقع عليها وحدها، فالمشكلة تتعلق بالفراغ القيادي على أكثر من مستوى في عالم ما بعد الحرب الباردة. فهو بداية يكمن في عدم صلاحية النظام الدولي القائم حالياً لإدارة المجتمع الدولي، فمن عادة التاريخ أن يُنتج «نظاماً ما» بعد نهاية الحروب الواسعة، وهذا على الأقل ما أكدته القرون الأربعة الأخيرة.

وها هي الحرب الباردة قد انتهت منذ أكثر من عقد، وبمنطق التاريخ في القرون الأربعة الماضية، كان على العالم إعادة التنظيم للوصول بالمجتمع الدولي إلى مرحلة أفضل من التنظيم وابتكار أفكار جديدة ليتأسس عليها عالم اليوم بعد محنة الحرب الباردة، لكنّ هذا لم يحدث بالرغم من محاولات التطوير التي شهدتها المنظمة الأممية تحت عنوان «الديبلوماسية الوقائية».

وفي مثل هذه اللحظات التي تختلط فيها المعايير وتغيب فيها النظم القيمة الواضحة القائمة على الأخلاق، ويضرب فيها بعرض الحائط مصالح البشرية وخبرتها التاريخية كلها، وتتجسد فيها مساعٍ حميمة لبلورة نظام تفاعلات دولية غير تعددية، ولا يعترف إلا بمصالح قوة وحيدة ومن يسيرون في ركابها، وتتعاظم فيها النزاعات الأحادية الاستعلائية، تصبح البشرية بأسرها أمام تحدٍ واختبار كبيرين، لا تنفع فيهما التحركات المنفردة، ولا تصلح فيها النزاعات الانتقامية العابرة. ويكون الخلاص في إستراتيجية مواجهة هادئة، يجتمع حولها المتضررون، يقيمون بأنفسهم ولأنفسهم صرحاً من الحماية وبناء من القوة المضادة لكل ما هو انعزالي وانكفائي وذي طابع استعماري إمبراطوري، لم يعد يتناسب من النضج الإنساني الذي وصلت إليه المجتمعات البشرية، رغم ما يواجه بعضها من مشكلات تأخر ونمو.

فبقدر رفض المجتمع الدولي لجريمة ١١ أيلول / سبتمبر ٢٠٠١م مهما كان مصدرها ودوافعها، إذ هي خروج على القانون الدولي، لا بد من رفض التدخل في الشؤون الداخلية وتغيير حكومات الدول بالقوة. لقد بُذلت محاولات جادة في بناء مجتمع دولي يسوده القانون، وما تم تحقيقه وإن كان قاصراً، بسبب سيطرة خمس دول على مجلس الأمن من خلال حق النقض، إلا أنه أفضل مما كان عليه الحال في الماضي. وهذا النظام - الآن - مهدد من قبل دولة فقدت قيادتها الرشد في التعامل مع الأحداث العالمية، إذ تتصرف وكأنها الحكومة العالمية المخوّلة بتسيير شؤون العالم.

وإزاء ذلك ثمة حاجة إلى أن يثور العالم أجمع في وجه هذا الطغيان الأمريكي، فالعمل الدولي يتطلب العدل والإنصاف، والقرية الكونية الصغيرة التي نعيش فيها لا يمكن أن تحتمل مثل هذا الجور؛ لذلك فإنّ العالم كله، بدوله وهيئاته ومنظماته المختلفة، مطالب بالعمل لحماية نفسه من بطش هذه الديكتاتورية الدولية المنفلتة، وفي الوقت ذاته لحماية أمريكا نفسها. ولن يكون ذلك من خلال المواجهة

العسكرية، بالضرورة، وإنما بعدم تمكين الإدارة الأمريكية من تنفيذ مخططاتها وسياساتها العدوانية، وكذلك دعم الأصوات والقوى الأمريكية التي تعارض توجّهات «المحافظين الجدد» المتحكمين بمفاتيح الإدارة الأمريكية الحالية. ومن أجل ذلك لا بد من مؤتمر دولي تدعى إليه منظمات المجتمع المدني العالمي من المنظمات غير الحكومية العالمية كافة وقادة الفكر في العالم، لبلورة جيل ثالث من المنظمات الدولية يعبّر عن الجمعيات غير الحكومية وممثلي المدن والبرلمانات والمثقفين، كفاعل دولي جديد، للإسهام في إدارة العلاقات الدولية لتوفير حد أدنى من الديموقراطية في المنتظم الأممي، ولضمان تحقيق الديموقراطية داخل أية منظمة أخرى تتولى في المستقبل الإشراف على العلاقات الدولية.

ومن مؤشرات ذلك، إعادة النظر في تكوين الأمم المتحدة ودورها في بناء نظام عالمي قائم على إشاعة العدل والحق في العالم، وتحويل الصراع في العالم صراعاً سلمياً بين الرؤى والسياسات. إنّ مكافحة الاستبداد والجهل والمرض والتأخر والفقر وإشاعة ثقافة الحوار والعدل والديموقراطية والحريات العامة وإنهاء بقايا النظام الاستعماري هي جدول الأعمال الذي يحوّل جريمة القتل الجماعي في نيويورك وواشنطن، وقبلها في ملجأ العامرية ببغداد وكافة المدن الفلسطينية، وكذلك المدن الأفغانية والعراقية، من مناسبات للحزن والسخط إلى فرصة للأمل.

إنّ الشرط الحقيقي لحياة أكثر حرية هو وجود بيئة دولية أقل تورطاً في إنتاج العداوات، بعدما تبين أنّ بيئة مؤهلة لإنتاج الكراهية والحقد ليست آمنة حتى لو امتلكت أعتى ترسانة أسلحة في العالم. كما أنّ أنجع ما تزيل به الولايات المتحدة الأمريكية مشاعر الكره والعداوة ضدها في بقاع العالم كلها هو إصلاح تصوّرها للعالم من حولها وإصلاح سياستها الخارجية وربطها ربطاً حقيقياً بمبادئ القانون الدولي والشرعية الدولية لحقوق الإنسان، وإنّ أعظم خطوة في إصلاح تلك السياسة هو بناؤها على الأخلاق وربطها بالقيم وتطهيرها من الميكيافيلية الجامحة التي التصقت بها. إنها مطالبة بأن تقف مع الحق ومع مصالحها الحقيقية، لا مع

رغبات أصحاب المصالح الضيقة من الصهاينة والرأسماليين المتوحشين وأشباههم من قوى الضغط المنفلتة من عقالها.

وعلى الصعيد العربي يبدو أنّ الإنجاز الداخلي ـ فقط ـ هو الذي يفتح الباب أمام تحقيق تطلعات شعوبنا العربية في المنظومة الدولية، مما يعني حل معضلات إعادة البناء الاقتصادي والتنمية الشاملة والديموقراطية السياسية والازدهار الثقافي والتوحيد القومي، من خلال صياغات عقلانية تطلق الإمكانات الهائلة لشعوبنا؛ ففي العالم العربي لا يجوز الدفاع عن الأمر الواقع الراهن الذي استنفد طاقة المجتمعات العربية وجعلها بؤرة للطغيان والإرهاب والفساد والتفاهة، ولا يجوز أن ندافع عنه ضد أعدائه إلا في سياق كسر هذا التكامل القدري بين سلطات دول الطغيان والطاغية العالمي الأوحد. باختصار يدور الأمر حول وحدة معركة الحرية: استقلال الوطن وحرية المواطن والإنسان، التحرر من السيطرة الخارجية لا كبديل عن الحرية السياسية والثقافية وحقوق الإنسان بل كأفضل شرط لتحقيقها. فبكل بساطة لا يمكن للشعوب أن تدافع عن سلطات دول تجوّعها وتحاصرها وتساومها حتى على حقها في مناقشة الشؤون العامة.

لقد قيل: إنّ هذه الحرب شنت من أجل اكتشاف وتدمير أسلحة الدمار الشامل العراقية، وهاهي الحرب قد انتهت ولم يتم العثور على أي نوع من أسلحة الدمار الشامل[1]، وقد أشارت صحيفة « واشنطن بوست» في ١٣ حزيران / يونيو ٢٠٠٣؛ بأن أبحاث وحدة القوات الخاصة السرية، والتي أطلق عليها « تاسك فورس ٢٠» والمؤلفة من جنود نخبة من «كوماندوس دلتا»، لم تتوصل إلى أي شيء يمت بصلة لأسلحة الدمار الشامل العراقية، ويبدو أن تلك الأسلحة لم يكن لها وجود سوى في عقل صقور واشنطن وتابعيهم[2].

(١) الحرب الوقائية بعد أحداث ١١ سبتمبر من وجهة نظر القانون، بحث منشور على الإنترنيت، الدكتور عبدالله تركماني.

(٢) العم سام.. الرجل المريض، أمير سعيد، مجلة البيان العدد: ١٩٣، رمضان ١٤٢٤هـ، نوفمبر ٢٠٠٣.

وعندما فشل جيش التحالف المحتل في اكتشاف أسلحة دمار شامل تغير موقف الإدارة في الولايات المتحدة من الثقة التامة بأن العراق تمتلك أسلحة دمار شامل إلى موقف أن الاتهامات كانت «مبررة، باكتشاف أجهزة يمكنها، ومن المحتمل استخدامها لإنتاج أسلحة دمار شامل»[1].

فما هو الأساس إذن لشن هذه الحرب: هل للسيطرة الإستراتيجية أم السيطرة على النفط أم تعزيز الدور الإسرائيلي في المنطقة أم محاصرة إيران أم الضغط على سورية أم نشر الديموقراطية؟ أليس من حق البشرية أن تعرف الجواب ولو بعد الحرب؟.

المقاومة ضد الاحتلال:

مدخل:

في نهاية شهر نيسان / إبريل ٢٠٠٣م، أي قبل شهور، وقف دونالد رامسفيلد مزهواً في مقر الكولونيل تومي فرانكس في قطر، يقارن النصر الأمريكي في العراق بسقوط جدار برلين وبتحرير باريس.

لقد كان سقوط برلين بمثابة الإعلان عن نهاية الحرب الباردة وتوحيد الشرق مع الغرب، وفي المثال الآخر قام سكان باريس فعلياً بالترحيب بقوات التحالف كمحررين من وطأة النازيين في الحرب العالمية الثانية. ولكن في كلتا الحالتين لم يكن هناك نفط محط أطماع حكومة الولايات المتحدة!.

وبينما كان رامسفيلد معتزاً بتفوق الجيش الأمريكي جعجع متفاخراً: «لم يسبق أبداً أن وجد هذا العدد الكبير من المخطئين بهذا الشكل الكبير بشأن هذا العدد الكبير من الأمور» وكان على الأرجح يشير إلى «العدد الكبير» من المشككين في الأساليب العسكرية الأمريكية المستخدمة في الحرب، وليس إلى أولئك الذين

(١) صحيفة واشنطن بوست أول حزيران / يونيو ٢٠٠٣.

يعتقدون بأن هذه الحرب غير خلقية، وغير شرعية، وغير ضرورية، وكان قاصداً بتصريحاته إلى العالم أنه كان مصيباً منذ البداية!.

بعدها بأيام في أوائل أيار / مايو ٢٠٠٣م، ظهر جورج بوش منتشياً، بزي طيّار مقاتل، بعد نقله جواً لمسافة ثلاثين ميلاً تقريباً من ساحل كاليفورنيا إلى ظهر حاملة الطائرات الأمريكية «أبراهام لينكولن». وأعلن بوش للقوات المحتشدة على ظهرها بأن العمليات الحربية الكبرى قد انتهت.

وصرح بوش وقتها: «بالأساليب الجديدة وباستخدام الأسلحة متناهية الدقة، التي يمكن أن نحقق أهدافنا العسكرية دون توجيه العنف ضد المدنيين». ولكنه لم يذكر أن عدد المدنيين الأبرياء الذين قضوا في حرب العراق كان تقريباً ضعف عدد أولئك الذين ماتوا في ١١ أيلول / سبتمبر ٢٠٠١م الرقم الحقيقي يتجاوز ١٣ ألف قتيل، كما لم يذكر الضحايا من أطفال العراق الذين فقدوا أذرعاً وأرجلاً ووالدين نتيجة للحرب، وما سيترتب على ذلك من معاناتهم المستمرة طيلة حياتهم، واستمر مقلّد الطيار المقاتل قائلاً: «وإنه لتقدم كبير عندما يكون لدى المذنب تخوف أكثر بكثير من الحرب مقارنة بالبريء» وكان عليه أن يضيف أن هذا يكون حقيقةً خصوصاً عندما يكون هو وزملاؤه ـ ولا أحد غيرهم ـ من يقرر من هو المذنب ومن هو البريء!.

ومع متابعة الأحداث كاميرات التليفزيون، استمر بوش قائلاً: «إن معركة العراق تعدّ واحداً من الانتصارات في الحرب على الإرهاب والتي ابتدأت في ١١ / ٩ / ٢٠٠٢م ولا تزال مستمرة».

وبعد مضي أربعة أشهر لعل ما يعده نصراً هو مسألة تثير الاستفهام، كما يبقى مفقوداً وجود رابط فعلي بين نظام صدام حسين وبين « معتدي ١١ سبتمبر». كانت نصراً أو أنها انتهت.

وفي الوقت الذي يتم تسويق دمية لبوش بزي عسكري في عموم البلاد

[تدعيماً لشعبيته]، هناك شبان أمريكيون في قوات الاحتلال يُقتلون يومياً تقريباً، في حرب على ما يبدو أنها حرب مستمرة للتحرر من الأمريكيين.

وهكذا بعد أربعة شهور من تفاخر رامسفيلد وتشبيهه ما حصل بتحرير باريس، وبعد إعلان بوش انتهاء عملية القتال الرئيسية للحرب، هناك حرب استنزاف مميتة ومستمرة ضد القوات الأمريكية والبريطانية في العراق، وأمريكا أبعد ما تكون عن الترحيب بها كمحرر، بل إنها خلقت لها عداوات وأكثرها في الشرق الأوسط، واستعارة لمقولة رامسفيلد، الذي كان بدوره مستعيراً لمقولة تشرشل، يمكن إعادة صياغتها كما يلي: «لم يسبق أبداً أن وجد هذا العدد القليل من المخطئين بهذا الشكل القليل بشأن هذا العدد الكثير من الأمور!» رامسفيلد، وبوش، وتشيني وولفويتز هم زعماء القلة المتمردين وقليلي النظر. فلم يكن هناك نصر في العراق، ووفقاً للظروف الحالية فليس هناك نصر محتمل[1].

فبعد سقوط بغداد وإعلان الرئيس الأمريكي جورج بوش في الأول من أيار / مايو بأن الحرب انتهت، وبعد الصدمة والفرحة، خرجت مقاومة عراقية بسيطة ترفض الوجود الأجنبي خاصة في منطقة الفلوجة السنية، وشيئاً فشيئاً كبر حجم المقاومة العراقية، مما جعلت الجندي الأمريكي يعيش حالة نفسية صعبة، حتى بات يشعر بأنه المستهدف القادم في مسلسل القتلى الأمريكيين، كانت المقاومة تتصاعد بشكل مستمر مما جعل الولايات المتحدة تعيش في حالة قلق، وتتكتم على أعداد القتلى من الجنود الأمريكيين.

ومنذ السابع من آب / أغسطس ٢٠٠٣ وقعت تفجيرات بسيارة مفخخة في السفارة الأردنية في بغداد، كذلك تفجيرات بسيارة مفخخة في مقر الأمم المتحدة، أتبعه في ٢٥ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٣ إطلاق ٢٩صاروخ من نوع كاتيوشا على فندق الرشيد الذي كان يقطنه نائب وزير الدفاع الأمريكي بول وولفويتز، وتفجير

(١) حرب العراق بين بوش وجنوده، ديفيد كريجر، مجلة البيان العدد: ١٩٣، رمضان ١٤٢٤هـ، نوفمبر ٢٠٠٣.

في ٢٧ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٣ سيارة مفخخة في مقر الصليب الأحمر وبعض مراكز الشرطة العراقية بدأت العمليات العراقية تأخذ طابع الاحتراف.

أكد تقرير أوروبي لخبراء الأمن القومي الأوروبي ومكافحة الإرهاب أن الحرب العراقية ضد أمريكا قد بدأت الآن فقط، وأن ما سبق تكرار إعلانه من قبل أمريكا أن ما تواجهه القوات الأمريكية مجرد حوادث فردية متفرقة، أصبح أمراً غير مقبول، وعلى الأمريكيين أن يصدقوا حدوث مقاومة حقيقية ليتعاملوا معها بفكر حقيقي لا بردود فعل عشوائية؛ لأن الواقع يفرض حدوث مقاومة عراقية تتسم بالاحتراف، وهي مقاومة تؤكد رفض الوجود الأمريكي - البريطاني على الأراضي العراقية.

وكشف التقرير أن المعلومات التي وردت في تقارير خبراء الاستخبارات الأمريكية في العراق دللت على وجود فصائل كوماندوز عراقية تقوم بتنظيم المقاومة، وأنها تتركز في بغداد وتكريت مسقط رأس صدام حسين، وكوادر الكوماندوز من عناصر الجيش العراقي السابق الذين كانوا لا يدينون بالولاء الحقيقي لصدام حسين، والذين تم تسريحهم منذ دخول الأمريكيين لبغداد.

والمقاومة العراقية جاءت نتيجة مخاض مرّ بها الشعب العراقي منذ انتهاء الحرب الأمريكية، ودخول القوات الأجنبية إلى العراق، وتتمثل المراحل في:

وقوف العراقيين في صفوف المتفرجين أولاً للتأكد من نوايا أمريكا الحقيقية تجاه بلادهم.

انتهاء شعور الفرحة والارتياح لتخلص الشعب العراقي من الحكومة الديكتاتورية الظالمة وعناصر حزب البعث الذي جثم على صدورها سنوات طويلة.

تصاعد الشكوك لدى رجل الشارع العراقي في رحيل القوات الأمريكية عن بلاده بسرعة.

ارتكاب القوات الأمريكية والقوات الأجنبية جرائم تتعلق بالشرف والكرامة

مثل: الاغتصاب، وانفلات الأمن، وسرقة التحف والثروات العراقية النادرة وتهريبها عبر كبار الضباط.

تسلل عناصر من الموساد الإسرائيلي ومعظمهم تخفوا في شخصيات لرجالات أعمال إلى العراق، وانتهازهم مناخ ضعف النفس لدى بعض الخونة العراقيين لشراء أراضٍ وشركات.

كل العراقيين بمختلف طوائفهم أخذوا الفرصة الكاملة لالتقاط أنفاسهم من الصدمة العسكرية الأمريكية البريطانية لاجتياح بلادهم، ولم يعد مستبعداً أن تتمكن المقاومة العراقية من إجبار القوات الأمريكية على الركوع والخضوع والرحيل، وهو ما سيصنع مهزلة أمريكية على مدى التاريخ.

الخريف الأمريكي في المستنقع العراقي:

يطلق الدبلوماسيون الفرنسيون في عدد من العواصم العربية على الورطة الأمريكية في مستنقع الرمال العراقية.. المتحركة عبارة «خريف بوش الأسود في بلاد الرافدين».

وبقدر ما ينطوي هذا التوصيف على حرص علماء «الإتيكيت» واللياقة التقليدية في القاموس الدبلوماسي الفرنسي، يتضح في الوقت ذاته بنوع من التشخيص الدراماتيكي لمأزق أمريكي تولد من حسابات ظرفية واكبت مجمل معادلات المشروع الإستراتيجي على ضفاف دجلة.

فقد كانت الحرب سهلة جداً، واحتلال الأرض أكثر سهولة في ضوء اختراقات استخبارية لرجال الحلقة الضيقة حول صدام حسين، منذ عام على الأقل، قبل ساعة الصفر.

وكان المناخ العام في بغداد مؤاتياً لإقامة «مستوطنات أمريكية» في قلب هيئات أركان الجيش والأمن والأجهزة والتحكم فيها بالريموت كنترول المالي والمخابراتي، حتى إن صدام، وبعد وصول الفرقة الأمريكية المجوقلة ١٠١ (تنتشر الآن في منطقة

الموصل) إلى منطقة أبو غريب واحتلالها في ٣٠ آذار / مارس ٢٠٠٣م، وكان الأمر أشبه بفرز الخنجر في خاصرة بغداد. صرخ في آخر اجتماع موسع للقيادة العسكرية بحضور نجليه عدي وقصي، قائلاً: «حتى ثيابي خانتني»، فلم يخطئ في ذلك، وهو المسكون بغريزة البقاء، إن اللعبة انتهت، على الأقل في وجهها الظاهر، ولم يعد بدأ أمام الطوفان من اللجوء إلى «سفينة نوح» كقميص نجاة أخير.

واقتضى ذلك «النزول تحت الأرض» وإشعال المقاومة السرية التي كانت قد أعدّ لها جيداً عبر صندوق مالي أسود قيل: إن رصيده يلامس عشرة مليارات دولار، تبعاً لدبلوماسي عربي في عاصمة خليجية ومجموعات من النوى الطلبة في المكتب العسكري لحزب البعث وفدائيي صدام وجهاز الأمن الخاص الذي كان يقوده نجله قصي.

واللافت في هذا الترتيب السري أن الرئيس السابق استبعد كل العناصر «الرموز» التي كانت تدور في فلكه بمن فيهم نجلاه القتيلان اللذان فرا إلى خارج الحدود. ثم عادا لكي يلقيا حتفهما في الموصل في ٢٢ تموز / يوليو ٢٠٠٣م.

وحده عزة إبراهيم الدوري التحق بصدام وأفواج مقاومته لأنه «موثوق مئة في المئة» على حد قول بعثي عراقي سابق في بيروت، وهو الآن مسؤول «صندوق المال» وينفق على العمليات كما على شبكات الدعم والإسناد والإمداد.

وحسب تقديرات استخبارية عربية فإن زمان لائحة أوراق اللعب الأمريكية تخلو من أي وجه من وجوه المقاومة العراقية السرية، خصوصاً أن رجالها الأساسيين كانوا بعيدين عن الشاشة الإعلامية زمن الحكم الصدامي.

وهم ليسوا من الجيل المخضرم الذي باتت غالبية عناصره في معسكر الاعتقال بالقرب من مطار بغداد.

ويشكل هؤلاء الآن غرفة عمليات المقاومة وعقلها المخطط والمنسق فيها الانتحاريون الذين ردعوا بغداد بالسيارات المفخخة منذ الهجوم على السفارة

الأردنية في ٧ آب / أغسطس ٢٠٠٣م واقتحام مقر الأمم المتحدة ومقتل ممثل الأمين العام للمنظمة الدولية البرازيلي « سيرجيو فييرا دي ميلو» في ١٩ آب / أغسطس ٢٠٠٣م. ومن ثم هجمات الإثنين الدامي في بغداد، وتركزت على مقر الصليب الأحمر وأربع مفوضيات للشرطة الأمر الذي أكد، وبعيداً عن الاجتهادات الأمريكية وحسابات الآلة الإعلامية المبرمجة على قياس انتصار الإدارة الجمهورية وعتاة الصقور فيها، قدرة المقاومة الصدامية بكافة روافدها وأذرعها وخلاياها النائمة والمتحركة على شن عدة عمليات منسقة في وقت واحد.

كرة الثلج المتدحرجة:

إنها نوع من كرة الثلج المتدحرجة التي تجعل الاحتلال صعباً ومكلفاً بفواتيره البشرية والسياسية والمالية.

وقد تجبر بوش، إذا تواصل إيقاعها التصعيدي الملتهب إلى سحب قواته قبل الدخول في معركة الولاية الثانية في البيت الأبيض. إذا كان الانسحاب غير مطروح الآن فإن البقاء أصعب وأكثر فداحة.

وهذا ما يسميه الفرنسي « إيمانويل تود»، صاحب كتاب «ما بعد الإمبراطورية» مرحلة القبض على الجمر، فيما أحد الدبلوماسيين العرب يقول: «إن تمر العراق يتحول إلى جمر».

وقف المحقق الأمريكي بقامته الفارعة أمام الانتحاري الجريح الذي كان ينزف من كتفه وساقيه وسأله: «من أنت؟ بصوت متهدج وخفيض، أجاب: اسمي حسن العبد الله. وأنا من مدينة إب في اليمن». المترجم لم يسمع اسم المدينة جيداً. وقال «إنه من حلب». وتدخل المحقق ليسأل: ما علاقة حلب باليمن؟

وبعد لغط صاخب في مقر « CIA» في بغداد. تبين أن الانتحاري يمني ويحمل بطاقة هوية سورية مزورة. وكان الناجي الوحيد بين ستة كاميكازيين أحرقوا قلب بغداد في ٢٧ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٣م حيث إن المخططين لطوفان النار

والمتفجرات والحطام لاحظوا وقوع ست عمليات متزامنة. لكن خمساً منها وصلت أهدافها. أما السادسة فشلت وكان حسن العبد الله هو الذي يقود السيارة المفخخة التي لم تنفجر فعاجله رجال الشرطة العراقية بالرصاص. وشلوا حركته. ثم نقل إلى مستشفى ابن سينا الذي تشرف عليه القوات الأمريكية في بغداد.

وتواصلت وجبات التحقيق معه بهدف معرفة الجهة التي جندته وأرسلته إلى الموت، وحسب روايات أطباء عراقيين أشرفوا على علاجه، فإنه اعترف بأن اليمنيين عديدون في صفوف المتطوعين العرب الذين وفدوا قبل أشهر لدعم صدام، وشبه الوضع الحالي في العراق بالحالة التي كانت سائدة في أفغانستان قبل سقوط طالبان.

وصادرت الشرطة العراقية سيارة « تويوتا» بيضاء كان يستقلها في مهمته وتحمل لوحة مسجلة في كركوك، وفي داخلها ٢٠٠ كجم من مادة «تي إن تي» وثلاث قذائف مدفعية لم تنفجر.

وفرضت إماطة القناع في ظل «كرة الثلج المتدحرجة» والتي لم تولد من فراغ، بل استلزمت تحضيرات حثيثة ترقى إلى منتصف عام ٢٠٠٢ عندما بدت الحرب أمراً مفروغاً منه في البنتاغون والبيت الأبيض.

ترتيب الأوراق ومرحلة المقاومة:

كان وزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحاف الذي كان قد كشف في سياق حلقات الحوار مع تليفزيون أبو ظبي أن الرسالة الأخيرة التي تلقاها من صدام في ٦ نيسان / إبريل ٢٠٠٣ (قبل ثلاثة أيام من سقوط بغداد) كانت إشارة إلى بدء مرحلة جديدة من ترتيب الأوراق والصفوف سميت «المقاومة».

وقد صاغ منهجها السياسي والإستراتيجي وبنيتها ونظام عملها. وفي البداية كلف جهازاً بعثياً خاصاً بتجنيد المقاتلين العرب والعراقيين وتدريبهم في معسكر رواة، على بعد ١٥٠ ميلاً شمال غربي بغداد. فأغارت عليه القوات الأمريكية في

١٧ حزيران / يونيو ٢٠٠٣ وألقت القبض على اثنين من الناشطين فيه، وتبين لاحقاً إنهما سوري وخليجي. كما عثرت على عدد من جوازات السفر الأجنبية.

ووفقاً للتقديرات الأمريكية كان في هذا المعسكر نحو ٧٠ مقاتلاً من جنسيات عربية مختلفة، كما أشارت معلومات متوافرة إلى أن عدداً آخر من «الأفغان العرب» كانوا في طريقهم من دولة مجاورة من المعسكر ذاته.

ولم تستطع القوات الأمريكية تحديد عدد المقاتلين العرب الذين قتلوا في الهجوم، لصعوبة فرزهم عن المقاتلين العراقيين الآخرين. لكنها اعترفت بأنها واجهت مقاومة شرسة من جانب المقاتلين في المعسكر الذين تمكنوا من إسقاط طائرة هيلكوبتر وجرح ضابط أمريكي في العملية.

ورأى المحللون في البنتاغون أن الوصول السريع للقوات الأمريكية من الكويت إلى بغداد أدى إلى عدم انتشارها في جميع المناطق، مما ساعد أنصار صدام على إعادة تجميع أنفسهم في المناطق التي تأخر دخول القوات الأمريكية.

المثلث السنّي:

المعروف أن المقاتلين العرب لعبوا دوراً بارزاً في التصدي للقوات الأمريكية خلال الحرب، ودخلت العراق أفواج من المتطوعين العرب حاربوا في بغداد، تأكدت القوات الأمريكية من هوية المقاتلين بعد اجتياح معسكر رواة، ومن خلال جوازات السفر التي عثر عليها مع المقاتلين الذين سقطوا دفاعاً عن بغداد.

وفي حلقة خاصة اعتبر القائد الأعلى للقوات الأمريكية في المنطقة الجنرال جون أبي زيد أن استمرار تجنيد المقاتلين خارج العراق مسألة بالغة الخطورة، وتوحي بأن وراء هذه العملية جهة قوية؛ لأنها تحتاج إلى تنظيم دقيق بأموالٍ كثيرة.

وأضاف أن مثار قلقنا هو أن من يريد محاربتنا الآن لم يعد في حاجة إلى السفر مسافة طويلة إلى دول مجلس التعاون الخليجي للعثور على الجنود

الأمريكيين وضربهم، فهو قادر على القيام بذلك على مقربة منه في العراق دون عناء كبير.

وأشار أبي زيد - اللبناني الأصل - إلى أن الميليشيات التي تقاتل الأمريكيين في العراق حالياً تهدف إلى ضرب معنويات جنودنا، وإرغام الإدارة على اتخاذ قرار سريع بالانسحاب.

وانطلاقاً من النوى البعثية الصلبة تحركت الأذرع الأولى للمقاومة العراقية واقتصرت عملياتها على الرشاشات وقاذفات «R B G» المحمولة على الكتف وزراعة الألغام التي تستهدف الدوريات الأمريكية على متن ناقلات الجند من طراز «هامفي» الضعيفة التدريع، وهي من الطرائد السهلة في حرب العصابات.

وطورت المقاومة العراقية وسائلها، وانعطفت نحو استخدام الصواريخ كما جرى في مطار بغداد ضد طائرات للنقل العسكري الأمريكي أو ضد فندق الرشيد، مقر محطة «CIA» على ضفاف دجلة، وهو الفندق ذاته الذي نزل فيه نائب وزير الدفاع الأمريكي، بول ولفوتيز وكاد أن يتحول إلى مقبرة له لو أصابت الصواريخ الطابق الثاني عشر الذي كان يمضي ليلته البغدادية فيه ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

وضمن الجدلية البعثية السنية ذاتها كان طبيعياً أن تتحرك المقاومة الصدامية، وعلى طريقة السمك، في المياه الملائمة لها. ولذلك تركزت خريطة العمليات داخل ما يسمى بـ «المثلث السني» الممتد من تكريت إلى الفلوجة عبر بغداد، أي مناطق الوسط العراقي.

ولم يعد خافياً أن مدينة الفلوجة، مثل بعقوبة والخالدية والضلوعية، هي حقل ألغام وبؤرة نار بالنسبة إلى العسكري الأمريكي. وتعمد قيادتهم إلى إرسال المزيد من القوات للسيطرة على الوضع. لكن دون نتيجة.

فالسكان يقاومون بشكل أكثر ضراوةً، مقارنة بالمدن العراقية الأخرى. وحسب لواء الشرطة ذياب عباس إن «لكل مدينة سماتها المميزة. ففي الفلوجة الثقافة

الدينية هي الرائجة، ونحن مصابون، ولا نزال ننزف، وتعيش هذه البلدة الصحراوية في ظلال الماضي».

وعلى امتداد الطريق السريع الفاصل عن بغداد، وطوله نحو ٥٠ كيلومتراً لافتات كُتب عليها: «الفلوجة ستكون النار التي تحرق الغزاة» ورشح أنها معقل أساسي من معاقل المقاومة البعثية، وإلى جانب قاعدة ما تزال جاثمة فوقها صورة كبيرة لصدام حسين ترتفع لافتات تدعو السائقين إلى الابتعاد عن القوافل الأمريكية إلى مسافة تزيد عن كيلو متر واحد في «مثلث الموت» الذي يشهد كل يوم سقوط أكثر من جندي.

وما ينطبق على الفلوجة ينسحب بدوره على بعقوبة الواقعة داخل المثلث السني الذي تحول صفيحاً ساخناً؛ فهذه المدينة الواقعة على بعد ٦٠ كيلومتراً شمال شرقي بغداد تحولت إلى رأس الحربة في حرب العصابات ضد القوات الأمريكية.

واعترف جنرالات المارينز بأن وحدتهم لا تشعر بالأمان في هذه المدينة الإستراتيجية الواقعة وسط بساتين النخيل التي تشكل مخابئ مثالية للمجموعات المناهضة للقوات الأمريكية المنتشرة في بغداد والرمادي والفلوجة وتكريت.

وظهرت تواقيع لقوات «فدائيي صدام» على جدران المدينة التي تعتبر أحد معاقل أنصار صدام حسين. وتشاهد في مكان بعيد أقل من كيلومتر واحد من مركز الشرطة عبارتا «عدي وقصي شهيدا العراق العظيم». و «بارك الله صواريخ الفلوجة وقناصي بغداد». كما يدعو شعار آخر غير موقع على جدار إلى الجهاد «ارفعوا السيف لحفظ البلاد والعباد من الاتحاد والاحتلال».

أقواس وذخائر وخرائط:

وداخل هذا القوس الجغرافي المشدود بين بعقوبة والفلوجة تحتل تكريت موقعاً أساسياً في الحرب الاستنزافية التي تخوضها المقاومة؛ فالتجنيد سهل في مسقط رأس الزعيم السابق. ومستودعات السلاح أكثر من أن تحصى، حتى إن معلومات

متطابقة أشارت إلى أن ثمة أكثر من ٦٥٠ ألف طن من الذخائر في العراق؛ وقد يرتفع الرقم العراقي إلى مليون طن، وفق أحد التقارير الأمريكية، فهناك مستودعات واحتياطيات للجيش السابق، ويعرف أمكنتها جيداً أنصار صدام، وهناك أيضاً داخل خريطة النار الضلوعية التي تعد واحدة من أكثر المناطق العراقية سخونة، والأمريكيون فيها يتعرضون بشكل يومي لعمليات عسكرية. الرائد جون هاورتون من الوحدة الثالثة في الجيش الرابع الأمريكي قال: إنه في الأشهر الثلاثة (بعد إعلان نهاية الحرب) تعرضت قواته في الضلوعية ومنطقتها إلى ٥٣ هجوماً، ملاحظاً أن المهاجمين لا يستطيعون الدخول إلى بساتين النخيل والتجول فيها، إذا لم يجدوا مساعدة من السكان.

وأكد أن المهاجمين هم في الغالب من «فدائيي صدام» في هذه المنطقة، وقد شوهد بعضهم وهو يلبس تلك الثياب السود التي كان يرتديها عناصر هذا التنظيم زمن حكم صدام حسين.

وعلى غرار العديد من مدن شمال بغداد، ضمت الضلوعية في ما مضى آلافاً من العسكريين وضباط «الحرس الجمهوري» وهؤلاء هم اليوم في منازلهم، وتحمل أجسامهم ووجوههم علامات الأسلاك التي ضربوا بها. وقد أردى الأمريكيون عقيداً سابقاً في الجيش العراقي من البصرة وهو عامر محمود زمان، من أبناء البلدة قالوا: إنهم قتلوه في منزله، فيما قال الأمريكيون: إنه حاول مقاومتهم عندما قصدوا بيته.

وحكايات يومية من هذا القبيل تشهدها الضلوعية، فيما الاحتكاك اليومي بين أبنائها والأمريكيين بات جزءاً من إيقاعها الداخلي المحموم. والمساجد الكثيرة في البلدة يتحدث خطباؤها عن الجهاد ويستحضرون تجارب من التاريخ العراقي وأطفالها يلفظون عبارة الأمريكان مقرونة بالشتائم، فيما عناصر الشرطة العراقية، وهم قليلون من أبناء البلدة، يتحدثون عن الاضطهاد الذي يتعرضون له والتهديدات التي تصلهم إلى منازلهم.

وفي القاعدة الأمريكية في المطار العسكري خارج الضلوعية يعمل عدد من المترجمين، ويقولون: إن مشايخ البلدة أصدروا فتوى ببطلان صيامهم في شهر رمضان الكريم.

ويلتف نهر دجلة حول الضلوعية فيفصلها في الجنوب، ويفتح حدودها على الشمال، حيث مدينة سامراء، وفي المساحة التي تتفرج فيها شبه الجزيرة والممتدة إلى المطار، تقبع طائرات « ميغ» الحربية التي أخفاها النظام السابق بين البساتين، حيث يخرج حسب الميجر هاورتون، مرتدو الثياب السود ويقصفون القوافل الأمريكية.

وإذا كانت الضلوعية وتكريت حديقة النار الخلفية، فإن بغداد هي حديقة المتفجرات الأمامية؛ لأنها تضم المراكز القيادية الحساسة للاحتلال، فضلاً عن كونها ساحة نموذجية للإعلام الذي يعولم أي حادث يقع فيها، وينقله إلى داخل كل بيت في الشرق والغرب؛ ولذلك خصت المقاومة العاصمة بعمليات نوعية صاروخية وانتحارية، علماً أن الهجمات الكاميكازية ليست من صنعها، وإن كانت تشارك في التخطيط لها وتوفير المستلزمات اللوجستية لتنفيذها.

وليس أدل على ذلك من فجر الصواريخ التي استهدفت فندق الرشيد في ٢٦ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٣، وكادت أن تودي بحياة ولفويتز. وحسب ضابط أمريكي مكلف بأمن المباني الرسمية في عاصمة الرشيد، فإن ٢٩ قذيفة أطلقت على الفندق. وأكد أن منصة الإطلاق كانت تضم «أربعين صاروخاً» أطلق منها ٢٩ وبقيت ١١ في القاذفة المحلية الصنع، وأوضح أن قذائف من عيار ٨٥ و٦٨ ملم استخدمت في الهجوم، وأضاف أن القذائف من ٦٨ ملم تطلق عادة من المروحيات، أما تلك من عيار ٨٥ ملم فتستخدم كصواريخ أرض ـ جو. وأوضح أن القاذفات المحلية الصنع كانت موضوعة في مقطورة قديمة وتم تمويهها لتظهر وكأنها مولد كهربائي وضعها المهاجمون على بعد حوالي ٤٠٠ متر من الفندق، وتابع أن المهاجمين «غادروا المكان بعد ذلك تاركين المقطورة في حديقة خلفية، لتطلق القذائف بعد خمس دقائق في اتجاه الفندق».

وأكد الضابط نقلاً عن التقارير الأولية أن ثلاثة أشخاص كانوا في سيارة من طراز (جي إم سي) بيضاء اللون تركوا المقطورة في الموقع.

وعثر جنود أمريكيون على قاذفة صواريخ كاتيوشا متعددة الفوهات داخل مقطورة زرقاء تابعة لشركة أشغال عامة متوقفة قرب رصيف عند مدخل حديقة الحيوانات قبالة فندق الرشيد، وتجاوز المهاجمون كل تدابير الحماية الوقائية في محيط المجمع، الذي يضم القصر الرئاسي السابق ومركز المؤتمرات وفندق الرشيد.

وقد شيد التحالف حائطاً عالياً من الأسمنت المسلح لحماية المجمع، غير أن الحائط ذاته استخدمه المهاجمون؛ فقد استغلوا عتمة الليل في أول ليالي رفع حظر التجول لقطر صندوق فارغ لمولد كهرباء يستخدم في الأشغال العامة، نصبوا في داخله قاذفة متعددة الفوهات ووضعوه إلى جانب الحائط، وبذلك كانوا خارج مدى رؤية الجنود الأمريكيين الذين كانوا في الجانب الآخر من الجدار.

هذا التكتيك دفع الأمريكيين إلى الاقتراب شيئاً فشيئاً من حقيقة وصعوبة المشكلات التي يعانونها؛ فقد سلموا بأن المقاومة تزداد تنظيماً وتسليحاً وتخطيطاً، وإن عملياتها باتت أكثر دقة.

والجنرال سانشيز، القائد الأمريكي لفت إلى أن ثمة ٣٠ أو ٣٥ عملية تقع كل يوم.

وسلاح الصداميين فوق رقعة المثلث السني هو الكمائن في شكل خاص، إضافة إلى الألغام والقنابل المصنعة من قذائف المورتر أو العبوات البلاستيكية الناسفة وحتى من الديناميت المنتشر على نطاق واسع في العراق، ويمكن تفجيرها بأسلاك أو إلكترونياً بعلبة بسيطة مثل أجهزة التحكم عن بعد. وتزرع عادة في مكان يمكن للمقاومة رؤية هدفه.

والثابت أن حرب العصابات غيرت في العمق المفهوم الأمريكي للخطوط الخلفية، وحسب قائد الفرقة المدرعة الأولى في بغداد، الجنرال مارك هايترلنغ،

فإنه لم يعد هناك ما يسمى الآن في العراق «الخطوط الخلفية». ذلك أن ميدان المعركة بات مفتوحاً والجميع مكشوفون ومعرضون للهجوم.. وأضاف أن المقاومة العراقية تركز على «الأهداف السهلة» في إشارة إلى قوافل « الدعم اللوجستي» والإمدادات ووحدات الشؤون المدنية، والطواقم الطبية.

وذكر أن الكمين الدموي الذي تعرضت له قافلة فرقة الصيانة ٥٠٧ في الناصرية في بداية الحرب يوضح بجلاء هشاشة مثل هذه الوحدات العسكرية عندما تتعرض لهجوم. وكان ذلك في ٢٣ آذار / مارس ٢٠٠٣ وأسفر عن مقتل ٩ جنود أمريكيين. وتم أسر المجندة جيسكا لانش التي حررت في ما بعد.

ويعتبر العقيد جون كريستنسون قائد إحدى كتائب الدعم أن «كل قافلة عسكرية أمريكية في العراق باتت الآن قوة قتال، مشيراً إلى أن جنوده يراجعون في كل مرة يخرجون في قافلة، السيناريوهات المختلفة للهجمات التي قد يتعرضون لها، وكيفية مواجهتها».

وأمام تضاعف زراعة الألغام ونصب الكمائن وتزايد فعاليتها الاستنزافية أعلن البنتاغون عن تزويد قواته في العراق بأنظمة وأجهزة تكنولوجية متقدمة لترصد القناصة واستشعار المكامن والعبوات عن بعد قبل ارتطام القوافل بها، وتتضمن الأعتدة مجسات صوتية وأشعة ليزرية وميكروفوناً تخيلياً لرصد القناصة.

وأفاد رئيس وكالة مشروعات البحوث الدفاعية المتقدمة في وزارة الدفاع الأمريكية أنطوني تيثير: إن الأجهزة الجديدة من شأنها المساعدة على الكشف عن القنابل التي تزرع على جوانب الطرق والشراك الخداعية التضليلية، وهي تستخدم تقنيات متطورة جداً بدءاً من الليزر وأدوات ووسائط الاستشعار الصوتية إلى التكنولوجية الكهرو مغناطيسية، واستدرك أنها لن تمثل حلاً كاملاً، وقد لا يتجاوز جدواها العملياتي أكثر من ٢٥ ٪ من نسبة الخطر المحدق بالجنود.

ولا شك أن الحمى التقنية تكشف عن مأزق أمريكي يتفاقم من جراء الخسائر

البشرية اليومية وانعطاف الوضع إلى ما يشبه «الحالة الفيتنامية» والأكثر إثارة أن ينهل الجيش الأمريكي من الخبرات الإسرائيلية في مواجهة حرب العصابات.

وقد تدربت وحدات من المارينز في قاعدة «تزيليم» في النقب على تكتيكات هذه الحرب بإشراف قائد لواء غولاني، العقيد موشيه تامير.

وجرى التركيز على كيفية التعامل مع المقاتلين في حرب عصابات تدور في بيئة مدنية وحماية القوات في الهجمات. وكيفية استخدام نقاط التفتيش والتصدي للاستشهاديين.. وكانت هذه المنظومة العالية الدقة التكنولوجية غير كافية، فقد عاد الحاكم المدني بول بريمر عن قرار سابق باستبعاد عناصر استخبارات صدام، ليستعين بها لاختراق «دهاليز» المقاومة. وشرعت دوائره في حملة سرية لتجنيد عناصر من أجهزة النظام السابق، ورفعت وتيرة استقطابها وإغداق رشوة مالية لها، الأمر الذي اعترض عليه بعض أعضاء مجلس الحكم الانتقالي لاستبعادهم عن اختيار هذه العناصر.

وإذا كان المسؤولون الأمريكيون يعترفون بحساسية الموضوع فإنهم يؤكدون حاجتهم الماسة بقدر أكبر من المعلومات الاستخبارية المتميزة بدقة أكبر، وهذا ما دفعهم إلى القبول بالمساومة. وتبعاً لأحد مساعدي بريمر فإن الطريقة الوحيدة التي تستطيع فيها أن تهزم المقاومة هي من خلال المعلومات الاستخبارية. إنها الطريقة الأساسية لوقف أولئك الناس عن القيام بما يريدون من هجمات ضدك. ودون مشاركة عراقية لن يكون ممكناً تحقيق ذلك، ويحاذر المسؤولون الكشف عن عدد العناصر التي كانت تعمل مع النظام السابق وتم تجنيدها، ولكن العراقيين يقولون: إن العدد يتراوح بين عدة عشرات وعدة مئات. واعترف الأمريكيون بأن العملية في طور التوسع، ونحن ما زلنا نكسب عدداً متزايداً منهم، وحسب دبلوماسي غربي في بغداد «هناك نمو واضح في التفكير الأمريكي، فقد تمت إعادة تشكيل الشرطة ثم الجيش، ومن المنطقي تجنيد عناصر من أجهزة الاستخبارات السابقة أيضاً».

ويعترف المسؤولون الأمريكيون بأن الجهد الأكبر في جمع المعلومات الاستخبارية يقع على عاتق الشرطة العراقية التي يبلغ عددها في بغداد نحو ٦٥٠٠ عنصر، وفي بقية أنحاء البلاد نحو ١٣٣ ألفاً. لكن ما يزال ناقصاً بسبب عدم ثقة الجمهور بها، وعددها يبقى أقل بكثير مما يطلبه الأمريكيون لفرض النظام في العاصمة المضطربة.

وعبر المدن العراقية أصبح التزود بالمعلومات الاستخبارية مستنداً إلى ما يقدمه مخبرون عابرون حول مخابئ أسلحة معينة ومواقع بعض المشتبه فيهم من المقاتلين، لكن العديد من العراقيين يعتبرون التقارير مشكوكاً في صحتها وتقدم أحياناً من أجل مكاسب شخصية.

اختراق المقاومة بعناصر صدامية:

يبدو أن التركيز ينصب الآن على أفراد ينتمون إلى جهاز المخابرات وهو واحد من أربع دوائر أمنية كانت تحت سيطرة صدام حسين، مع ذلك فإنها ليست الدائرة الوحيدة التي تستهدفها المساعي الأمريكية.

والمخابرات التي أسمها يزرع الخوف في نفوس العراقيين كانت مخصصة للتجسس الخارجي، وهي الأكثر براعة وتميزاً بين الدوائر الأربع، وتمكن المسؤولون الأمريكيون من أن يصلوا إلى عناصر هذا الجهاز كان بعضهم قد فرّ إلى سورية وإيران، كما قال مسؤولون عراقيون ووكلاء استخبارات سابقون.

ويعكس التركيز على رجال الاستخبارات العراقية قراراً اتخذه ريكاردو سانشيز قائد القوات البرية الأمريكية للحد من نزيف الضحايا اليومي والحصول على معطيات استخبارية موثوقة، خصوصاً أن تكتيكات حرب العصابات قد تنامت من حيث الحرفة والمهارة والتعقيد التقني.

ونسبت عملية إسقاط طائرة شينوك في ٢ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٣م وكانت في الطريق إلى الهبوط في مطار بغداد إلى ضباط سابقين في الحرس

الجمهوري عندما استخدم صاروخ سام ٧ المعروف في الغرب باسم صاروخ ستريلا، وهو بالغ التعقيد في الاستعمال، ودقيق إذا وجه نحو الهدف. وأكثر ما يحير الأمريكيين هو لا مركزية المقاومة وطابعها العنقودي المتناثر.

ومن وجهة نظر بول بريمر، الاختصاصي السابق في مكافحة الإرهاب، ومسؤولين أمريكيين آخرين فإن شكل المقاومة غير المتبلور يجعل التخلص منها أكثر صعوبة.

فالعناصر الأمنية التي يستعين بها الأمريكيون قد يكون بعضها عبارة عن «أحصنة طروادة» لمصلحة النظام السابق.

وقد تلعب دوراً مزدوجاً كما حصل في تفجير مقر الأمم المتحدة في ١٩ آب / أغسطس ٢٠٠٣، حيث تعاونت المقاومة مع عناصر عراقية موكلة بحماية حماية «سيرجيو فييرادي ميلو».

وهي التي زودت المخططين بالمعلومات عن تحركه وساعدت تواجده في مكتبه، ووجهتهم نحو الثغرات الأمنية في منظومة الحماية للدخول منها والوصول إلى هدفهم، علماً أن دي ميلو كان يتمتع بحماية كبيرة في تنقلاته. غير أن «الخيانة» أتت من قلب الحلقة المكلفة بأمنه الخاص وأمن المقر الأممي.

ووسط صخب العراقيين المناوئين لعملية الاستعانة باستخباريين صداميين وتشكيكهم في مصداقيتهم وتمسك بول بريمر والجنرال ريكاردو سانشيز بهم، لقي خمسة ضباط كبار في جهاز المخابرات العراقية المنحل مصرعهم في ظروف ما تزال غامضة.

فقد أردوا برشاشات كاتمة للصوت في «حي المخابرات» في منطقة العامرية، في العاصمة. وهي أكبر عملية تصفية طالت أفراد هذا الجهاز منذ انهيار النظام السابق، ومن بينهم عصام شريف التكريتي الذي كان يشغل منصب سفير العراق لدى تونس حتى عام ٢٠٠١، وكان يمارس التدريس في قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة بغداد قبل اغتياله.

ومحمد السبعاوي الذي عمل في شعبة الخدمة السرية حتى عام ١٩٨٩، وكريم الخنشاوي وهو مدير مخابرات، محافظتي البصرة وكركوك، وعصام الدروبي مدير الحسابات في المخابرات وثامر القلاحي العضو في قيادة شعبة المخابرات لحزب البعث المنحل.

لكن المقاومة العراقية، والتي تتكئ إلى فلول الأجهزة السابقة من حرس جمهوري وأمن خاص وفدائيي صدام، بدأت عملياتها بمفردها. وطورت نظام أدائها من القصف إلى الألغام والكمائن والصواريخ أرض ـ جو، ظلت بعيدة عن العمليات الاستشهادية، إلى أن قامت بنية تنسيقية مع تنظيمات جهادية «قاعدية» و «أفغان عرب» من دول الجوار، وصولاً إلى الشيشان. والواقع أن التقليد الاستشهادي والثقافة الكاميكازية غريبان عن بيئة النظام السابق الأمنية والعسكرية.

فقد سادت سياسة الاغتيال والتصفية ومتفرعاتهما. ولم تقم الفرقة ٩٩٩ الأكثر احترافاً « في القتل والتابعة لجهاز الأمن الخاص مثلاً» بأية عملية انتحارية منذ الانكفاء عن الكويت في عام ١٩٩١.

من هنا استرفاد المقاومة بفصائل الموت الاستشهادي التي انضمت إليها لتأمين المال والشبكات اللوجستية والملاذ الآمن وخريطة الأهداف.

ويؤكد العارفون أن تنظيم «أنصار الإسلام» الذي كان في منطقة حلبجة وجوارها هو الوعاء الذي احتضن الأفغان العرب والإسلاميين الوافدين من دول الجوار على خلفية «تصفية الحساب» مع الأمريكيين. وعن «الأنصار» تفرعت شبكة «العودة» و «جيش محمد» و «المجاهدون الإسلاميون». ويأتي بعض التمويل من عائلات ثرية من الحزام، وكما قال لواء عراقي سابق إن الممولين يدفعون ما يوازي ألف دولار للمجند الجديد و٣٠٠٠ دولار للأعضاء الذين يجلبون عناصر مدربة، ولا يحبون صدام لكنهم يريدون فقط طرد الأمريكيين والعودة إلى السلطة.

ويقول اختصاصي أمريكي في الاستخبارات العسكرية إن هناك اتجاهاً «إلى

القيام بهجمات أقل لكن بكفاءة أكبر لإحداث أكبر تأثير ممكن والعمل سري للغاية. فهم يتحركون من مدينة إلى مدينة وفق مسارات حددتها سلفاً « شبكات أمنية سرية».

والواقع أنه بعد تفجير مقر الأمم المتحدة، توجهت أصابع البنتاغون إلى جماعة «أنصار الإسلام». بشبهة اتهام، فيما تحدث الحاكم بول بريمر عن تدفق «إرهابيين» من دول مجاورة إلى العراق. ويجمع مراقبون على أن المجموعات الإسلامية المسلحة التي ظهرت على الساحة العراقية وادعت في بياناتها مسؤوليتها عن هذه العملية أو تلك ما تزال تفتقر إلى الطابع التنظيمي لتحديد سماتها ومدى فاعليتها في تحقيق أهدافها.

واللافت لدى المجموعات خطابها الذي يحمل نبرة «جهادية» ويركز على مفردات «التضحية من أجل الإسلام» و «مواجهة الكفار والانتصار عليهم» و «الفوز بالجنة»، ما يوحي بأنها إسلامية الطابع والتوجه، على رغم من أن ذلك قد لا يمثل الحقيقة، وربما سعت مجموعات غير إسلامية إلى استخدام هذا الخطاب لإضفاء الصفة الإسلامية وسيلة لكسب الشارع.

آلة «غوبلز» الإعلامية:

ويتوقع العارفون أن تثمر عملية الاستقطاب في منح المجموعات الإسلامية غطاء أيدلوجياً « تفتقر إليه، فضلاً» عن الإطار تنظيمي يضاعف من قدرتها على التخريب والترهيب والتدمير.

وهذا مثار قلق أمريكي عميق لا يتطرق إليه بوش «الواثق من الانتصار» ولا تشي به آلة «غوبلز» الإعلامية الضخمة. وكشف مصدر أمني عراقي رفيع المستوى في ٢١ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٣ أن المعلومات الاستخبارية تؤكد منفذ العملية الاستشهادية ضد فندق بغداد هو «عربي غير عراقي» وأن أحد عناصر الشرطة بقي حياً، من حراس الفندق تحدث معه قبل إندفاعه بالسيارة، وكانت لهجته غير عراقية.

وأشار المصدر إلى أن الأجهزة العراقية تمكنت في الفترة من اعتقال عشرات الناشطين العرب في مناطق مختلفة خلال اشتراكهم بأنشطة عسكرية معادية للأمريكيين وللشرطة العراقية، أو من خلال تخطيطهم لذلك.

وكشف أيضاً أن القوات الأمريكية أغارت قبل أكثر من شهر على معسكر قرب مدينة «هيت» غرب العراق. وأسرت عناصر متشددة من جنسيات مختلفة. وكشف المصدر أيضاً أن قوات «التحالف» والشرطة العراقية ألقت القبض على مجموعات فلسطينية تابعة لأبو العباس المعتقل لدى «التحالف» كانت قد نفذت وخططت لهجمات أخرى داخل بغداد.

والحديث عن «القاعدة» والمجموعات العربية ودورها المتسع والمتحول إلى مادة بحث واستدلال دائمة، فيميل العراقيون وحتى غير المعنيين منهم إلى الاعتقاد بأن الجزء الأكبر من العمليات الناجحة يتم عبر هذه المجموعات.

لكن يبدو أن تحول العراق إلى ساحة مفتوحة تتقاطع فيها المصالح والأهداف، عقد مسؤولو الأمن الأمريكيون والمحليون متابعة مهماتهم الأمنية، وما إن يباشر هؤلاء في محاولة تحليل المعلومات بشأن عملية ما حتى تفاجئهم عملية جديدة تخلط الأوراق، وتبعاً لتقرير أمني متكامل نشرت «انتلجنس أون لاين» مقتطفات منه (العدد ٤٦٣) فإن المجاهدين العرب تستقدمهم وتحصنهم هيئة «قاعدية» مزروعة في اليمن والخليج. فيتسللون عبر نقاط حدودية خارج المراقبة.

ويحتضنهم «أنصار الإسلام». وتُوكل إليهم مهمات تفجيرية محددة ضد أهداف منتقاة. عندئذٍ تنتقل الكرة إلى ملعب أجهزة النظام السابق فتتولى مجدداً التمويل والتحضير اللوجستي، وفي المرحلة الأخيرة وهي التنفيذ تتفاوت هوية الفاعلين بين مرتزقة في حال التفجيرات غير الاستشهادية، ومتطوعين عرب في حال التفجيرات الاستشهادية.

واعتبر مسؤول الأمن العراقي أن متفجرة النجف التي استهدفت السيد محمد

باقر الحكيم خير دليل على التعاون بين جماعة النظام السابق، والمجموعات الإرهابية من الخارج.

فمن المؤكد كما يقول: أن السيارات المفخخة وضعت أمام ضريح الإمام علي بمساعدة من داخل النجف التي يستحيل أن يكون بين سكانها أعضاء في «القاعدة» ولكن الأكيد أن بينهم عناصر مناصرين للنظام وإن كانوا قلة، وتشير التحقيقات إلى دور لمنظمات خارجية في التخطيط والمراقبة.

ويتحدث العراقيون في الشارع وفي أماكن العمل عمن يسمونهم «الغرباء»، ويبدو أن التعليمات لرجال الشرطة والحراس الكثيفي الحضور تتناول الحذر والتدقيق في الملامح غير العراقية للعابرين، وتطال التعليمات الرجال الملتحين أيضاً، فضلاً عن مرتدي الثياب ذات الطابع المتشدد و«الأفغاني».

من الترف إلى المقصلة:

لا شك أن الأمريكيين يضخمون عدد فاعلية «العناصر الأجنبية» لإبعاد الإحراج عنهم وتغطية تقصيرهم. وكذلك يفعل أعضاء مجلس الحكم الانتقالي، وقد يكون هذا الأمر مبالغة مكشوفة على غرار «فزاعة» أسلحة الدمار الشامل.

وقد نفى ضباط أمريكيون أن يكون التسلل من سورية إلى داخل العراق بالقدر الذي يتحدث عنه بول بريمر، وكذلك من إيران، وتقوم وحدات أمريكية تساعدها قوات أمن عراقية بمراقبة مباشرة لمعظم الحدود المشتركة مع سورية، في ما تتم مراقبة ما تبقى منها عبر طائرات تجسس. وتطلق على هذه العملية تسمية «تشامبرلين».

وحسب ضباط كبار في هذه القوات فإن المعلومات التي تجمعها الطائرات والجنود على الأرض لم تظهر وجود أي تسلل كبير عبر الحدود، لكنهم أضافوا أنه «لا يزال ممكناً للمقاتلين الأجانب أن يبلغوا بغداد من سورية ولبنان والأردن وتركيا والكويت عبر تجاوز النقاط الحدودية بوثائق سفر صالحة أو مزورة، لكن القلق من تسلل غير شرعي من الحدود يبدو لا أساس له».

وكان العقيد تشارلز بورينغ (٤٠ عاماً) الذي قتل في الهجوم على فندق الرشيد في بغداد ٢٦ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٠٣، وكان مسؤولاً عن العمليات النفسية في الجيش الأمريكي، قد أوضح طبيعة عمل المقاتلين الأجانب في تقرير سري رفعه إلى بول بريمر قبل مقتله بأسبوع، جاء فيه أن «هناك ما بين ٢٠٠ و ٤٠٠ مقاتل يمثلون النواة الأساسية لتمويل الهجمات الدموية والتخطيط لها وتوفير التنظيم اللوجستي». وأضاف أن هؤلاء يجندون الاستشهاديين في الأوساط المعادية للولايات المتحدة في الخليج والسودان واليمن والأراضي الفلسطينية وحتى الشيشان.

واعتبر أن المقاتلين الأجانب «يحظون بدعم كبير من الشبكة» على الأرض، وهو أمر ضروري للغاية لتنفيذ خمس عمليات استشهادية في غضون ٤٥ دقيقة كما حصل مؤخراً. وتنظيم مثل هذه الهجمات يتطلب أسابيع بل أشهراً. كان عليهم تنسيق خمس هجمات بخمس سيارات والعثور على التفجيرات ودفع المال لأسر الاستشهاديين. ويجب أن تكون لديهم معرفة ببغداد وأماكن إخفاء مشاغل لتفخيخ السيارات.

فهل ترك صدام حسين وراءه وضعاً ملغوماً ينفجر تباعاً تحت أقدام الأمريكيين؟.

العارفون يرجحون هذه الفرضية، فمثلاً رقعة جغرافية شاسعة وحدود طويلة يستحيل إغلاقها وفوضى أمنية و٦٠٠ ألف طن ذخائر و٥٠ مليون قطعة سلاح و١٥٠ ألف جندي أمريكي وحليف مبعثرون داخل هالة صعبة ويلهثون للإمساك بمفاصل الخريطة.

ولعل الأخطاء الأمريكية ترتد الآن على مرتكبيها، لا أسلحة للدمار الشامل، بل أسلحة للكراهية الشاملة، وتدمير للدولة وليس فقط للنظام. والفاتورة مرتفعة الآلاف. وأبرز معضلاتها تجلى في تجنيد قوات للشرطة العراقية، ومع غياب السجلات المدنية والجنائية لم يكن ممكناً التأكد من الهويات، وصادف أن مجرمين عديدين التحقوا بهذا السلك.. وهم محترفون ويقومون الآن بهواياتهم المفضلة تحت غطاء الزي الرسمي.

فهل الوقت يعمل، إذاً ضد الرئيس جورج بوش. لا شك في ذلك، على الرغم من نبرة خطابه الدعائي الواثقة، لكن انسحابه غير وارد الآن، عشية الدخول في العام الانتخابي. وثمة من ينصحه بتحديد موعد للخروج من المستنقع العراقي، لا يتجاوز العام الواحد إنقاذاً للهيبة وماء الوجه والفرصة الانتخابية. وإذا عاد إلى البيت الأبيض، فسيكون لديه متسع كافٍ من الوقت للبحث عن بلد آخر ليمارس معه هوايته الإرهابية المفضلة تحت عبارة «التحرير، والديموقراطية، وغيرها من العبارات الأخرى..» أما الآن فهذا الترف يتحول إلى مقصلة[1].

ونشرت مجلة «نيوز ويك» الصادرة في تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٣ موضوعاً عن المقاومة العراقية والفزع الذي يسيطر على الجنود الأمريكيين قالت فيه: «إن الجنود الأمريكيين الذين يذهبون في مهمات ليلية سواء بغرض أعمال التفتيش والقبض على المشتبه فيهم أو بغرض القيام بدوريات عادية يشعرون بتوتر بالغ بسبب المفاجأة غير السارة التي تنتظرهم في كل مكان، حتى باتوا لا يعرفون حقيقة العدو». وقالت المجلة: «إن مجموعة من كتيبة (برافو) الأمريكية في العراق ذهبت في إحدى المهام ليلاً ورغم أنهم كانوا يستهدفون أحد المنازل في مدينة الفلوجة وسط العراق إلا أن المفاجأة كانت في المنزل المجاور لهم، حيث كان رجال المقاومة العراقية. وقال قائد المجموعة أنه في ظل استمرار تساقط الجنود الأمريكيين قتلى في العراق منذ أعلن الرئيس بوش الانتصار الوهمي وانتهاء الحرب في أول أيار / مايو ٢٠٠٣ أصبحت التعليمات الصادرة للجنود الأمريكيين هي الحرص على الحياة قبل أي شيء، وأنه لا يوجد أي مبرر لوضع الجندي في موضع خطر»[2].

ولقد اعتبرت صحيفة «يو إس إي توداي»: «أن الهجمات تجعل من الصعب رؤية نهاية النفق» معتبرة أن «إستراتيجية الرئيس بوش في العراق أشبه بالتمنيات أكثر منها بالخطة المدروسة».

---

(١) الخريف الأمريكي الملتهب في «المستنقع» العراقي، مجلة المجلة العدد: ١٢٣٩، ١٥ / ١١ / ٢٠٠٣ هـ بتصرف.

(٢) مجلة «نيوز ويك» الصادرة في تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٣.

وهذه إشارة إلى تصريح بوش الأخير الذي توقع فيه أن يتم «إحراز مزيد من النجاحات متى ما انخرط العراقيون أكثر في أجهزة الشرطة والجيش العراقي، وقال: إن هؤلاء العراقيين من شأنهم أن يزودوا القوات الأمريكية في الميدان بمعلومات استخبارية تمكن من استهداف أعداء الحرية بدقة أكبر».

وهذا كلام أقرب إلى الأمنيات منه إلى الخطط المدروسة، وهذا يوحي أن بوش بدأ يفقد السيطرة على مجريات الأحداث في العراق، وأن المقاومة هي الآن التي تملك زمام المبادرة.

من ناحية أخرى فإن الأحداث الراهنة تدفع أعظم المحللين العسكريين لتوقع الهزيمة، قال مايكل أوهانلون المحلل العسكري أمام الكونغرس: «لا يجب أن يخطئ المرء بافتراض إمكانية انتصار سهل أو سريع، ولكننا مع هذا سننتصر في أغلب الظن».

وإن كان يعتقد في أغلب الظن أنه سينتصر فهو إذاً لا يستبعد الهزيمة. كما دعا ممثل ولاية ميسوري ديك جيفاردت لطلب المساعدة الدولية، وقال: «إننا لا نستطيع حل هذه المشكلة بمفردنا».

وهذا التصريح يدل بوضوح على العجز والهزيمة النفسية أمام ضربات المقاومة الناجحة، إلى جانب ذلك فإن ارتفاع حدّة المقاومة تؤدي إلى ارتفاع أصوات المطالبين بعودة الجنود.

قال: «دينيس كوسينيتش»، ممثل ولاية أوهايو، الأمريكية: «هذه المهمة المخربة يجب أن تنتهي قبل أن تحصد المزيد من الأرواح، وقد حان الوقت لعودة قواتنا من العراق، إن المرشحين الآخرين يتخبطون وينتقدون الإدارة، ولا أحد منهم يجرؤ على طلب الانسحاب».

وقال قائد الناتو السابق، ويسلي كلارك: «لقد تم تضليلنا حتى دخلنا هذه الحرب، دون أن تقدم لنا خطط للنجاح».

فمهما أبدى السياسيون الأمريكيون من مظاهر التماسك المصطنع وضبط النفس... فإن انهيار معنويات الجنود وإجهادهم... كفيل بتغيير تلك النبرة والبحث عن سبيل للفرار.

ففي استطلاع للرأي أجراه مركز جالوب الأمريكي اليهودي أكد غالبية المشاركين في الاستطلاع أن الخسائر اليومية الفادحة التي لم يكن يتوقعها مهندسو الحرب ولا المواطنون تؤكد أيضاً أنه يجب الانسحاب الفوري من العراق، فليس هناك سبب لدفع ثمن الحرب بقتل أبنائنا وإهدار المليارات من الدولارات، وهو ما سيؤثر على الاقتصاد على المدى القريب.

و صدرت صحيفة الإندبندنت صباح اليوم الأربعاء ٥ / ١١ / ٢٠٠٣م بافتتاحية تحدثت عن افتقار الرئيس الأمريكي دبليو جورج بوش إلى «إستراتيجية خروج» من المأزق العراقي. وقالت الصحيفة: إن الشعب العراقي لابد أنه يتساءل عن متى يرحل احتلال القوات الأجنبية لبلاده، فيما بدأ الجمهور الأمريكي يتساءل هو الآخر عن السبب الذي يجعلهم يتحملون تكلفة باهظة من الدماء والمال للبقاء في بلاد لا يبدو أنهم محل ترحاب بها.

وتقول الصحيفة: إن «السيد بوش لا يمكن أن يحقق كسباً، فإما يتجاهل موجة الهجمات الموجهة للتحالف، أو يقرّ بها» والخياران ليس أحدهما أفضل من الآخر. وتختتم الصحيفة بالقول: «إن فكرة الرحيل عن العراق في مثل هذه الظروف ربما تكون مهينة للأمريكيين، غير أن تسليم مقاليد الأمور بشكل حصيف لسلطة دولية يعد الأفضل بين خيارات جميعها سيئ يتعين على البيت الأبيض المفاضلة بينها». ويحاول الصحفي أن يبحث عن مخرج يحفظ ماء وجه بوش بعد أن فقد زمام الأمور في العراق ولا يستطيع الخروج من هذا الوحل الذي أوقع جيشه فيه. «أو لا يعلمون أننا لن نسمح لهم بالفرار».

وفي تصريحات المسؤولين الأمريكيين أنفسهم وفي مقدمتهم الحاكم المدني بول

بريمر الذي قال: إن الموقف يتدهور نحو الأسوأ، وإن المقاومة العراقية تتطور بسرعة كماً وكيفاً، وكذلك تصريحات وزير الدفاع دونالد رامسفيلد الذي قال: إنه لم يعد يرى أي أفق لتحقيق الاستقرار في العراق.

حالات انتحار واضطرابات نفسية بين الجنود الأمريكيين:

انتهت الحرب الأمريكية على العراق رسمياً لكن معاناة ما بعد الحرب للجنود الأمريكيين قد تكون أشد، حيث ارتفع معدل حالات الانتحار والحالات النفسية بينهم.

جاء ذلك في تقرير نشرته صحيفة «الأبزورفر» البريطانية الصادرة في ٢٥ كانون الثاني / يناير ٢٠٠٤، قالت فيه: «إن نسبة الاضطرابات النفسية في مرحلة ما بعد الحرب بين الجنود الأمريكيين تصل إلى حالة لكل خمسة جنود»، واستندت الصحيفة في تقريرها إلى مسؤول طبي كبير تعامل مع المشكلات النفسية لمرحلة ما بعد الحرب. وقال التقرير: إن الكشف عن المعاناة النفسية للجنود أعقب الكشف في شهر كانون الأول / ديسمبر ٢٠٠٣ عن إجلاء ٦٠٠ من الجنود الأمريكيين وإبعادهم عن العراق لأسباب نفسية منذ أن بدأ الصراع في شهر آذار / مارس ٢٠٠٣، وأنه قد حصل ما لا يقل عن ٢٢ حالة انتحار في صفوف الجنود الأمريكيين - وهي نسبة غير عادية - معظمها حدث بعد إعلان الرئيس بوش انتهاء العمليات القتالية الرئيسة في العراق في ١ أيار / مايو ٢٠٠٣، وقد استرعت هذه النسبة العالية اهتمام وزارة الدفاع التي تجري تحقيقاً على مستوى عالٍ لمعرفة الأسباب. وعلى الرغم من أن نسبة الانتحار إذا أخذت في الإطار العام للجيش الأمريكي ليست عالية، لكن إذا نظر لها من الجانب الآخر - كما يقول التقرير - أي الجانب الزمني حيث معظمها حدث بعد ١ أيار/ مايو فهي ذات إحصائية مهمة، والوضع نفسه ينطبق على الحالات النفسية والإخلاءات الناتجة عن أمراض نفسية، حيث إن معظمها وقع بعد ١ أيار / مايو أي في مرحلة ما بعد الحرب، وهو ما يثير قلق المسؤولين الأمريكيين من تكرار التجربة الفيتنامية والتي شهدت زيادة كبيرة في

الحالات النفسية في مرحلة ما بعد الحرب. وطبقاً لما ذكره مدير الخدمات النفسية في المركز الطبي البحري في سان دييجو الكابتن جنيفر بيرق فإن الأطباء النفسيين العسكريين تم تحذيرهم من أن الحالات المتوقع حدوثها قد تصل إلى نسبة ٢٠٪ من مجموع القوات العاملة في العراق، ويقول بيرق: إنه بخلاف العمليات القتالية فإن ما يحدث الآن هو نتيجة للضغوط المستمرة على الجنود العاملين في العراق، وواقع الحال في العراق أقلها الخطر الماثل في التهديد المستمر للعربات الأمريكية والجنود الأمريكيين من المقاومة العراقية والهجمات التي تنفذها، وما يواجهه الجنود الأمريكيون هو مزيج من الخطر والملل وعدم القدرة على النوم، إضافة إلى كونهم بعيدين عن بلدهم وأهلهم كما يقول بيرق. وبالإضافة إلى ذلك فإنهم لا يعلمون ما هي نهايتهم ولا يعلمون متى سيعودون إلى وطنهم، إضافة إلى طبيعة الناس الذين يتعاملون معهم والتي تتسم بالعدائية.

تحدثت مجلة «نيوزويك» الصادرة في كانون الثاني / يناير ٢٠٠٤ الأمريكية: «أن اعتقال صدام حسين لم يكن له تأثير يذكر على إيقاع المقاومة المسلحة في العراق، والتي وإن تراجعت من حيث الكم إلا أنها أصبحت أشد قوة وأكثر تركيزاً وتعقيداً، الأمر الذي يعترف به قادة القوات الأمريكية في العراق الذين يتحدثون عن الأسلحة الحديثة لدى المقاومة العراقية والقدرة الكبيرة على استخدام هذه الأسلحة التي أسقطت العديد من الطائرات الأمريكية.

وتحت عنوان «موت جمهورية الخوف» في المجلة نفسها كتب الصحفي فريد زكريا يقول: إن اعتقال صدام حسين ربما يكون قد أنهى بالفعل خوف العراقيين من عودة صدام حسين وجمهورية الخوف التي كان يعيش العراقيون فيها، ولكنه في الوقت نفسه لم يؤثر سلبياً بصورة كبيرة على المقاومة العراقية التي تستخدم تكتيكات مناسبة تماماً لقدراتها وأهدافها.

وقال الكاتب: «إن هذه المقاومة لا تهدف إلى تحقيق انتصار عسكري؛ لأنها غير قادرة على ذلك، ولكنها في الوقت نفسه تسعى إلى تحقيق انتصارات سياسية

عن طريق التأكيد على عجز الاحتلال عن تحقيق الاستقرار في العراق، والحقيقة أنها ناجحة في تحقيق هذا الهدف حتى الآن.

هل تعلم:

- أنَّ قناة الـ CNN الأمريكية أصدرت خبراً مصوراً محتوياً على كل التفاصيل بحق ٤٢٨ عسكرياً غازياً محتلاً للعراق سقطوا قتلى في العراق جراء عمليات المقاومة الوطنية العراقية، اعتراف سيلعب دوره لترويج الحقائق داخل أمريكا، بعد أنْ تمكن المحافظون الجدد والمسيحيون المتصهينون من تصوير الغزو والاحتلال مجرد نزهة على طريقة أفلام هوليود قام بها اللص الباغي «الشريف»!.
- إنَّ تهريب الجندي الأمريكي إلى تركيا، بعد تنكره بملابس كردية، أو تهريبه إلى الأردن بعد اعتماره ملابساً عربية قد بلغ مبلغ الألف دينار، عن كل رأس عسكري أمريكي أو مجندة أمريكية!.
- وأنَّ ٢٨٠٠ عالم مخابراتي أمريكي مختص بالأسلحة قد مسحوا تفتيشاً وبحثاً أرض العراق كلها من أجل العثور على ما يسمى بأسلحة الدمار الشامل، فضلاً عن إجرائهم التحقيقات مع مئات العلماء العراقيين، من غير أنْ يتوصلوا إلى أية نتيجة فعلية تخدم الرؤية الأمريكية ودعايتها التي تبرر أسباب العدوان على العراق!.
- أنَّ ١٥ ضابطاً من عناصر الموساد ممن يعملون تحت واجهات جيش الاحتلال الأمريكي قد جرى ترحيلهم من العراق إلى الكيان الصهيوني في أعقاب أربعة أيام فقط من تفجير النجف الشهير الذي ذهب ضحيته السيد محمد باقر الحكيم!.
- إنَّ ٢٩ ألف معتقل ومعتقلة في بغداد وحدها بذريعة الاشتباه كونهم من رجال المقاومة؛ وإنّ عشرة آلاف أسير ومسجونة من الجنسين أطبقت قوات الاحتلال على حريتهم في مخيمات غاية في ظروفها المنافية لأبسط الشروط الإنسانية

رغم دعايتهم السياسية عن العدالة والحرية والديموقراطية المجلوبة للعراق على أيدي الغزاة المحتلين!.

- إنّ صحيفة «العرب الدولية» التي تصدر بلندن نقلت خبراً نسبته إلى مصدر في « CIA» يقول: «نحن نسيطر على محطات إذاعة، وندعم رجال دين، كونهم معتدلين وفق المنظور الأمريكي يصدرون فتاوى تحث العراقيين على عدم مقاومة القوات الأمريكية» إنهم ظهور «الحفافيز الجدد» يجعلنا نتذكر علماء الحفيز القدماء ممن كانوا: في خدمة الأوفيس البريطاني عشية ثورة العشرين العراقية التي اندلعت في٣٠ حزيران / يونيو ١٩٢٠ وبعدها!..